عبد الوهاب المسيري

رحلتي الفكرية

في البذور والجذور والثمر

دار الشروق

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

عبد الوهاب المسيري

رحلتي الفكرية

في البذور والجذور والثمر

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

الإيداع ١٠٣٥٤/٢٠٠٥
رقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 09 - 1285 - 9

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري - مدينة نصر
: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بريد الكتروني: email: dar@shorouk.com
www.shorou

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

مقدمة

حينما أنتهي من أحد أعمالي الفكرية، عادةً ما أتأمله وأتأمل القضايا المنهجية والفكرية التي يثيرها حتى أبلورها لنفسي لتتضح الرؤية، وأرى علاقات بين التفاصيل والأفكار المختلفة لم أكن قد رأيتها من قبل، وأدرك جوانب في الموضوع الذي أتناوله لم يكن قد سبق لي إدراكها، كما أتعرف على بنية العمل الداخلي. وفي معظم الأحيان، إن لم يكن فيها جميعًا، تنتهي هذه العملية بإعادة كتابة العمل عدة مرات، إلى أن يستقر العمل تمامًا ولا يفضي التأمل إلى جديد. وهذا ما فعلته في **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد** (يُشار إليها في هذا الكتاب بكلمة **الموسوعة**)، وقد أدى التأمل هذه المرة إلى كتابتها عدة مرات عبر عدة سنوات.

وحينما لاحت مشارف ما تصورت أنه اكتمال أهم أعمالي، وجدت أنه قد يكون من المفيد أن أضع بين أيدي القراء، وبخاصة الشباب، بعض خبراتي الفكرية والمنهجية. وبالفعل، كتبت بضع صفحات عن حياتي وأفكاري كنت أنوي ضمها إلى **الموسوعة**. ولكن اتسع نطاق التأمل وزاد حجم الصفحات وترابطت الأفكار (الثمر) بجذورها (حياتي الثقافية بأسرها) وببذورها (تكويني في دمنهور)، بحيث وجدت أنها تشمل كل حياتي الفكرية. وهذا ليس بغريب؛ لأن ا**لموسوعة**، بمعنى من المعاني، هي نتاج حياتي كلها. فانفصلت التأملات والكلمات عن **الموسوعة** حتى أصبحت عملاً مستقلاً يحمل ولا شك بصمات ماضيه، ولكنه مع هذا يتجاوزه في نفس الوقت. وكانت النتيجة هي هذه الصفحات: **رحلتي الفكرية - في البذور والجذور والثمر: سيرة غير ذاتية غير موضوعية**.

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

والصفحات التالية هي قصة حياتي أو رحلتي الفكرية كمثقف عربي مصري، وليست قصة حياتي الخاصة زوجًا وأبًا وابنًا وصديقًا وعدوًا. وهي ترصد تحولاتي الفردية في الفكر والمنهج ولكنها تؤرخ، في الوقت نفسه، لجيلي، أو لقطاع منه؛ فتحولاتي ليست بأي حال منبتة الصلة بما يحدث حولي. كما أن الجزء الثاني هو محاولة لعرض بعض أفكاري الأساسية كما تتمثل في معظم أعمالي، بطريقة أعتقد أنها مبسطة، كما أنها تبين كيف تشكلت هذه الأفكار ومدى ترابطها وبعض تطبيقاتها.

ومن هذا المنظور، تصبح أحداث حياتي لا أهمية لها في حد ذاتها، وإنما تكمن أهميتها في مدى ما تلقيه من ضوء على تطوري الفكري. ويمكنني القول بأنني فهمت كثيرًا من أحداث حياتي الخاصة (الذاتية) من خلال نفس الموضوعات الأساسية الكامنة والمقولات التحليلية التي استخدمتها في دراساتي وأبحاثي (الموضوعية)، وليس العكس. ولعل هذا ما دعاني إلى استبعاد بعض تفاصيل حياتي الخاصة (المغرقة في الخصوصية)، وهي تفاصيل قد تكون مهمة من منظور شخصي، وقد تهم أعضاء أسرتي وأصدقائي، ولكنها لا تهم قارئ هذه الصفحات. ولعل هذه الواقعة توضح تمامًا ما أود قوله. فقد حضرت احتفالاً رسميًا بمناسبة افتتاح كوبري في مديرية البحيرة وانهالت الخطب الواحدة تلو الأخرى. ثم قام أحد خبراء النفاق وأخذ يعدد مناقب سعادة الوزير الذي جاء لافتتاح الكوبري، فسعادته طيب جدًا وعلى خُلق متين للغاية ويقيم الصلاة في مواقيتها «ومايفوتيشي فرض» . . . إلخ. فقام أحد المستمعين محتجًا، قائلاً: «إن هذه صفات إيجابية إن كان الحديث عن زوج ابنتي، لكن إن كان الحديث عن وزير [أي شخصية عامة] فالأمر جدُّ مختلف». وهذا هو ما فعلته في هذه الرحلة، أي أنني استبعدت كل الوقائع والتفاصيل التي ليس لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتطوري الفكري (ما لوني المفضل؟ وما نوعية قماش بدلتي؟ ومن خالتي؟ . . . إلخ)، فهي وقائع لا تهم من يريد أن يتعرف على تطوري الفكري. وحينما كنت أذكر إحدى الوقائع في حياتي كنت كثيرًا ما أستبعد الأسماء الحقيقية لأبطالها حتى لا أسبب حرجًا لأحد منهم، وحتى يركز القارئ على مغزى الواقعة (لا على تفاصيلها). وقد يقول قائل إن كل الأمور مترابطة، وإنني قد أستبعد بعض التفاصيل المهمة دون أن أدري، وهو محق. ولكن لا مناص من الاختيار، ولا مناص من أن يتم الاختيار والإبقاء والاستبعاد والتهميش والتركيز حسب نموذج محدد، فالبديل هو أن أحاول أن أعطي القارئ كل تفاصيل

www.scantopdf.eu

حياتي، دون تفسير أو ترتيب، ولعله قد يغرق فيها فلا يعرف أين يبدأ وكيف ينتهي، وما معنى كل تفصيلة (أو «معلومة» كما يقولون هذه الأيام!).

لكل هذا ابتعدت عن السرد المباشر لأحداث حياتي المتعاقبة ومراحلها المتتالية، وحاولت بدلاً من ذلك أن أعرض لها من خلال بعض الأنماط والقضايا والمقولات التحليلية والموضوعات الفكرية الكامنة المتواترة في كتاباتي وحياتي، دون التقيد بمرحلة زمنية محددة. فهذه رحلة فكرية يتم سردها من خلال موضوعات (نماذج، كما سأبين فيما بعد)، لا من خلال مراحل متتابعة.

وقد سهّلت عليّ هذه الطريقة في الكتابة عملية الانتقال بين أحداث حياتي المختلفة، أختار منها ما يتلاءم والموضوع الذي أتناوله. فحين أتناول موضوعًا ما، أتناول كثيراً من جوانبه دون التقيد بمرحلة زمنية محددة. فكنت أبدأ، على سبيل المثال، بواقعة ما في حياتي وقراءاتي لهذه الواقعة، وما استخلصته منها من نتائج، ثم أنتقل إلى واقعة أخرى يتطلب منطق الفصل أن تليها، مع أن منطق السرد التاريخي يتطلب أن تأتي قبلها. كما أنني قد أورد أحداثًا قرأت عنها أو جوانب من الموضوع الذي أتناوله تكشفت لي فيما بعد، متجاهلاً منطق التتالي الزمني، متبعًا منطق بنية الفصل. وقد يسّرت لي هذه الطريقة في الكتابة عقد المقارنات المختلفة بين المواقف المتباينة (وفي تصوري أن المعرفة الإنسانية أساسًا معرفة مقارنة). وحتى حينما تناولت إحدى مراحل حياتي بشكل مستقل داخل إطار زمني (كما هو الحال في الجزء الأول من الرحلة)، كنت أقوم دائمًا بوضعها داخل نمط فكري أو موضوع أساسي أكثر اتساعًا وعمومية من المرحلة ذاتها.

ولكن هذه الرحلة الفكرية، مع هذا، هي رحلتي أنا. فأنا الذي عشت ما عشت من تجارب، وطرحت ما طرحت من أسئلة، وأدركت ما أدركت من أفراح وأتراح، واستوعبت ما استوعبت من دروس ومفاهيم! أنا الذي تفاعلت مع ما حولي من تجارب منذ أن وُلدت في دمنهور ونشأت فيها، إلى أن انتقلت إلى الإسكندرية، ومنها إلى نيويورك، ثم أخيراً إلى القاهرة حيث استقر بي المقام. وهي رحلة إنسان فرد له خصوصيته وذاتيته، ولذا فالإشارة إلى الأحداث التاريخية العامة التي حدثت في حياتي (مثل ثورة ١٩٥٢) هي إشارة سريعة مقتضبة، فهذا جزء من تاريخ مصر العام. بل إن الصراع العربي الإسرائيلي، هذا الحدث المهم في حياتنا جميعًا، يظهر في هذه

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

الرحلة في طيِّ حديثي عن رؤيتي له وعن التحولات التي خضتها في أثناء كتابتي الموسوعة.

فإذا كانت هذه الرحلة الفكرية، سيرة غير ذاتية، فهي أيضًا سيرة غير موضوعية. سيرة إنسان يلتقي في فضاء حياته الخاص بالعام، ولهذا لا أذكر القضايا الفكرية المجردة وحسب، وإنما أشفعها دائمًا بأحداث من حياتي أو اقتباسات من كتاباتي تبين كيف ترجمت القضية الفكرية (العامة) نفسها إلى أحداث ووقائع محددة في حياتي الشخصية (الخاصة). (حينما طلبت من الرسام كمال بلاطة أن يرسم لي صورة [بورتريه] بمناسبة وصولي سن الأربعين، قال إن من الأفضل رسم أعمالي، فأخذ بعض مؤلفاتي ورسمها، فكان البورتريه الذي رسمه صورة غير ذاتية غير موضوعية!). من هنا جاءت الاستطرادات الكثيرة، التي عادةً ما تتناول إحدى وقائع حياتي الخاصة التي أرى أن لها علاقة بالموضوع الذي أطرحه. ومن هنا أيضًا نجد أن الرحلة لا تتسم بما يسمَّى «الوَحْدة العضوية» (أي أن تكون في تماسك الكائن الحي وتلاحم أعضائه)، فوحدتها وَحْدة فضفاضة تسمح بالانتقال من الذات إلى الموضوع، ومن الخاص إلى العام، ومن الفردي إلى الاجتماعي، ومن الحدث الشخصي إلى الدلالة العامة، ومن الماضي إلى الحاضر، وبالعكس! (اكتشفت، في أثناء سنوات عملي بالتدريس، أن ضرب الأمثلة ورواية القصص ينقلان للمتلقي الأفكار المجردة الصعبة بسهولة ويسر). وقد حاولت في أثناء سرد رحلتي الفكرية أن ألخص الأطروحات الأساسية في بعض أعمالي (خصوصًا **الموسوعة**) بأسلوب سهل يسير، وأن أقتبس منها بعض الصفحات المحورية. وحاولت، قدر استطاعتي، أن تحوي الصفحات إشارات إلى تجاربي الشخصية وبعض أحداث حياتي، أو أمثلة طريفة توضح الفكرة النظرية. كما أوردت في هذه المرحلة بعض قصائدي الشعرية، رغم معرفتي أنها لا تتمتع بمستوى جمالي عالٍ، لأنها تعبر بشكل جيد، من وجهة نظري، عن نقطة التقاء الخاص بالعام وتقاطعهما.

ويمكن التمييز بين بنية النموذج (الثمر) وعناصر تكوينه (البذور والجذور). فالبنية سكونية وثابتة تكاد تكون خالية من الزمان. أما عناصر التكوين فمتحركة، وعنصر الزمن والتاريخ أساسي فيها، ولا يمكن فهم حياة أي إنسان أو أي ظاهرة إنسانية أو طبيعية، إلا بمعرفة العلاقة بين الواحد والآخر.

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

وهذه الرحلة الفكرية، بمعنى من المعاني، هي محاولة لتكشف القلق الشخصي الذي تحول إلى قلق فكري، أدى بدوره لبلورة مجموعة من الأسئلة. وهي كذلك دراسة لوقائع حياتي وأحداثها، وتجاربي الشخصية، وقراءاتي المتنوعة، والمواجهات الفكرية التي خضتها. وهي أخيراً قصة بحثي كمثقف عربي عن أداة بحثية جديدة تتفق ورؤيته وإدراكَه وتُيسِّر عليه تحليل النصوص والظواهر التي يتعرض لها بالبحث والتحليل، كما تُيسِّر له توصيل فكره لقرائه. وثمرة المحاولة والتساؤلات والبحث هي الموضوعات الفكرية الأساسية في حياتي التي تبلورت في نهاية الأمر في عدة نماذج تحليلية. فهذه الرحلة/ السيرة هي في واقع الأمر دراسة في عناصر تكوين النموذج.

والنموذج هو رؤية تصورية أو خريطة معرفية يجردها عقل الإنسان (بشكل واعٍ أو غير واعٍ) من الوقائع والأحداث التي تقع له، والظواهر التي يرصدها، والدراسات التي يقرؤها. وبما أن المرء يتصور أن العناصر المختلفة التي تكوِّن هذه الخريطة والعلاقات القائمة بينها تشاكل عناصر الواقع والعلاقات القائمة بينهما، فإنه يرصد الواقع ويفسره من خلالها. ولعل أبسط مثل للنموذج فكرة «الإنسان العادي» أو «الإنسان الغربي»، فهذا الإنسان هو مجموعة من الصفات التي تحولت إلى صورة متماسكة تكونت من خلال عمليات الرصد المباشر والقراءات المتكررة واختبار مقدرتها التفسيرية على محك الواقع، ثم تترسخ هذه الصورة تدريجيّا في ذهن الإنسان ووجدانه ووعيه ولاوعيه بحيث لا يمكنه أن يرى الواقع إلا من خلالها. والعملية التحليلية في تصوري هي في جوهرها عملية رصد للنماذج الإدراكية (الكامنة في أقوال الآخرين)، وعملية صياغة للنماذج التحليلية (كما سأبيِّن بالتفصيل فيما بعد).

وبرغم ترابط البذور بالجذور بالثمر، وأحداث حياتي بأفكاري الأساسية، فإنه يمكن القول بأن الجزء الأول من هذه الرحلة يتناول كثيراً من الأحداث التي أدت إلى تكوين الأفكار والنماذج، بينما يشمل الجزء الثاني في معظمه الأفكار والنماذج التي تكونت. بل إنه يمكن رؤية حقب زمنية فيه، فالجزء الأول يسمَّى «التكوين»، أي جذور التكوين الفكري لصاحب الرحلة. ويتناول الفصل الأول «البذور الأولى»، وهو أساسًا عن أحداث حياتي في دمنهور خلال طفولتي وصباي وجزء من شبابي. أما الفصل الثاني، «بدايات الهُوية»، فيتناول تلك الأحداث في حياتي التي أصبحتُ من خلالها واعيًا بذاتي

www.scantopdf.eu

(وهي أحداث تنتمي لنفس الفترة تقريبًا، وإن كانت تغطي جزءاً أكبر من مرحلة الشباب). ويغطي الفصل الثالث، «في الولايات المتحدة»، فترة الشباب المتأخر. ويؤرخ الفصل الرابع، «من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية»، لعملية انتقالي من المادية إلى عالم أرى أنه أرحب.

بعد هذا الجزء الذي يغطي أساسًا «بذور وجذور» النماذج، يتناول الجزء الثاني عالم الفكر، والتي أشير إليها بـ «الثمر». وبطبيعة الحال يبدأ الفصل الأول، «النماذج الإدراكية والتحليلية»، بعرض بعض التحولات المنهجية التي واكبت التحولات الفكرية، كما يتناول الفصل الثاني بعض الكتابات الأولى. أما الفصل الثالث، «الصهيونية»، فيتناول إشكالية الصهيونية وعلاقتي بها، وجوانب حياتي الفكرية. أما الفصلان الرابع والخامس، فيتناولان أهم أعمالي على الإطلاق وهو **الموسوعة**: تاريخها وموضوعاتها الأساسية. وأختم بالفصل الخامس والأخير «خارج عالم السياسة» الذي أعالج فيه كتاباتي التي لا علاقة مباشرة لها بالصهيونية، رغم أنها في معظمها تطبيق لنفس النماذج التحليلية. وكما قلت، ثمة إشارة في الجزء الأول إلى بعض الأفكار والنماذج، تمامًا كما يحتوي الجزء الثاني على بعض أحداث التكوين. وسيلاحظ القارئ أن الدراسة الأدبية، من حيث إنها جزء أساسي، ومن حيث إنها تركت أثرها العميق على الثمر ولونته بلونها، تشغل مساحة كبيرة في هذه الرحلة/ السيرة.

* * *

وبرغم أن هذه السيرة كُتبت من خلال موضوعات، فإنني وجدت أنه قد يكون من المفيد أن أقدم للقارئ خريطة هيكلية لمراحل حياتي الزمنية:

١٩٣٨ الميلاد في دمنهور (٨ من أكتوبر).

١٩٤٤ الالتحاق بمدرسة دمنهور الابتدائية، ثم مدرسة دمنهور الثانوية (حصلت على الابتدائية عام ١٩٤٩، ثم حصلت على الثقافة [وهي شهادة نهائية ألغيت بعد حصولي عليها] عام ١٩٥٤، ثم حصلت على التوجيهية، أدبي فلسفة، عام ١٩٥٥).

١٩٥٥ الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

١٩٥٩ التخرج من الكلية والتعيين فيها معيداً في العام الذي يليه.

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

١٩٦٣ السفر إلى الولايات المتحدة للالتحاق بجامعة كولومبيا Columbia في نيويورك حيث حصلت على الماچستير عام ١٩٦٤ .

١٩٦٤ الالتحاق بجامعة رتجرز Rutgers في مدينة نيو برونزويك New Brunswick في ولاية نيوچرسي حيث حصلت على الدكتوراه عام ١٩٦٩ .

١٩٦٩ العودة إلى مصر للتدريس في قسم اللغة الإنجليزية في كلية البنات جامعة عين شمس .

١٩٧٠ التعيين لفترة قصيرة مستشاراً لوزير الإرشاد (الأستاذ هيكل) .

١٩٧١ التعيين خبيراً للشئون الصهيونية بمركز الدراسات السياسية والإستراتيچية بالأهرام

١٩٧٢ صدور أول مؤلفاتي الحقيقية **نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني** (كانت مؤلفات أخرى قد صدرت لي قبل ذلك سأذكرها في طي الرحلة) .

١٩٧٥ صدور **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية** (يُشار إليها في هذه الرحلة بـ **موسوعة ١٩٧٥**) . ثم العودة إلى الولايات المتحدة لأنضم لأسرتي بعد أن ذهبت زوجتي إلى هناك للحصول على الدكتوراه . وقد عملت في هذه الفترة مستشاراً ثقافيّاً للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك .

١٩٧٩ العودة إلى مصر للتدريس في كلية البنات .

١٩٨٣ الانتقال إلى الرياض للتدريس في جامعة الملك سعود .

١٩٨٩ الانتقال إلى الكويت للتدريس في جامعة الكويت .

١٩٩٠ العودة إلى مصر والاستقالة من الجامعة حتى أتفرغ تمامًا لكتابة **الموسوعة** .

١٩٩٢ صدور الطبعة الأولى من كتاب **إشكالية التحيز : رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد** .

١٩٩٦ صدور كتاب **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ : رؤية حضارية جديدة**، وتبعته المؤلفات الأخرى .

١٩٩٩ صدور **الموسوعة** .

٢٠٠٠ صدور بعض قصص الأطفال .

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

٢٠٠١ صدور كتاب العالم من منظور غربي والكتاب الذي بين يدي القارئ .

٢٠٠٢ صدور بعض أعمالي الأخرى، من أهمها **الموسوعة الموجزة** وديوان الشعر وبعض الدراسات الأدبية وكتاب **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة** وكتاب **الحداثة وما بعد الحداثة** .

ولكن - كما أسلفت - فبرغم وجود هذا الهيكل التاريخي العام، فإن الرحلة الفكرية تم استكشافها أساسًا من خلال إشكاليات وموضوعات وقضايا .

* * *

ولا أدري هل هذه السيرة غير الذاتية غير الموضوعية «نوع أدبي جديد» أو «نوع أدبي قديم» أو «نوع أدبي قديم/ جديد» أو «خليط من أنواع أدبية وغير أدبية». فلنترك هذا للقراء والنقاد، ولتكن هذه السيرة دعوة للمفكرين العرب إلى أن يكتبوا سيرهم غير الذاتية غير الموضوعية التي تحتوي على تلخيص لأفكارهم وبذورها وكيفية تشكلها، ليضعوا خبرتهم تحت تصرف الأجيال الجديدة. ومما يجعل المسألة أكثر إلحاحًا تعاظم الفجوة بين الأجيال مما يؤدي إلى عدم توارث الحكمة والمعرفة، وأخشى ما أخشاه أن تبدأ الأجيال القادمة من نقطة الصفر .

* * *

وبعد، فلم يبق سوى أن أترك صفحات هذا الكتاب بكل ما يحويه من أحداث وتأملات وتجارب تتحدث إلى القارئ مباشرةً، عسى أن يكون في ذلك شيء من الفائدة وقدر من المتعة . والله أعلم .

دمنهور - القاهرة

١٩٣٨ - ٢٠٠٠

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

الجزء الأول

التكوين

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

الفصل الأول

البذور الأولى

دمنهور: المجتمع التقليدي والإحساس بالتاريخ

وُلدت في دمنهور، عاصمة البحيرة، وهي مدينة صغيرة في دلتا مصر تقع بالقرب من الإسكندرية. وحينما نشأت فيها طفلاً، كانت تتميَّز (من منظور رحلتي الفكرية) بوجود عبق التاريخ فيها، برغم أنه لا توجد فيها آثار فرعونية أو قبطية أو إسلامية. وقد عرفت، ممن هم أعلم مني بالآثار، أن هذه هي الحال دائمًا مع المدن الصغيرة التي تستمر فيها الحياة عبر العصور (على عكس المدن التي يتوقف فيها التاريخ وتدفنها الرمال). إبَّان نشأتنا في دمنهور كانوا يخبروننا أن اسمها هو «دم نهور»، لأن الدماء، كما قالوا لنا حينذاك، سالت فيها أنهارًا، في أثناء إحدى المعارك الحربية في الماضي. ثم عرفنا فيما بعد أن هذه التسمية فلكلورية، وأن دمنهور هي «دمن حورس»، أي «مدينة الإله حورس». فكأن الوجدان الشعبي يريد أن ينسب المدينة إلى ماضيه العربي الإسلامي الحي، بدلاً من ماضيه الفرعوني المتحفي. عرفنا أن دمنهور من أقدم مدن العالم، وأنها كانت عاصمة الوجه البحري قبل توحيد القطرين (يُقال إنها هي ودمشق المدينتان الوحيدتان اللتان استمرت فيهما الحياة بدون انقطاع مع احتفاظهما باسميهما اللذين عُرفا بهما في الماضي). كان يُقال لنا إن مسجد التوبة، الذي يقع بالقرب من المحطة ومن شارع خيري، أسسه عمرو بن العاص، وأن معركة كبيرة وقعت بين نابليون والمماليك قرب دمنهور (في شبراخيت على ما أذكر).

وحينما شببت عن الطوق، بحثت عن أصل عائلتي. وبطبيعة الحال، قيل لنا إننا من الأشراف، أي من أهل البيت. وكان أحد أعضاء العائلة يحتفظ بشجرة تبدأ فروعها من

Produced with ScantoPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

دمنهور في القرن العشرين وتنتهي عند مكة في أيام البعثة المحمدية (ولعله لو زاد البحث قليلاً لأوصلها لآدم، وأدرك أننا سواسية كأسنان المشط!). وكانت إحدى علامات الأصالة أن يعرف الإنسان أسماء جدوده، ولذا كنت أعرف أن اسمي هو: عبد الوهاب محمد أحمد علي غنيم سالم عز المسيري (ولكن يبدو أن هذه عادة كانت في طريقها إلى الاندثار [مثل كثير من العادات المشابهة الأخرى]، ولذلك لا أعتقد أن إخوتي الأصغر مني سنّاً يعرفون أسماء جدودهم. وهم، على كلٍّ، مثل كثير من أبناء بورجوازية دمنهور الريفية، نشأوا في الإسكندرية لا في دمنهور. أما أولادي وبعض أحفادي فقد نشأوا في الولايات المتحدة. ومع هذا في محاولة، ربما تكون يائسة، أحاول أن أُعلِّم حفيدي أن اسمه هو نديم ياسر عبدالوهاب محمد أحمد . . . إلخ). ومن خلال بعض القراءات، عرفت أن أول مسيري مصري كان عالمًا فقيهًا جاء من المغرب إلى مصر في القرن السادس عشر، وأن أحد أفراد أسرة المسيري كان حاكمًا للإسكندرية عند احتلال نابليون إياها، وأن ابنه استشهد (أو قُبض عليه) في إحدى المظاهرات ضد الفرنسيس. (وقد أورد الجبرتي بعض هذه الوقائع ونقلها عنه الرافعي). وقد أخبرني أحد علماء الإنسانيات السودانيين أنه مهتم بما يُعرف باسم قبائل المسيرية. وهي قبائل توجد في السودان، ولا يُعرف هل جاءت من المغرب واستقرت في السودان، أو أنها جاءت من الجزيرة العربية مع تغريبة بني هلال. وقد أرسل لي مقالة تبين أن ثمة تشابهًا بين أهل تهامة وعرب المسيرية. ويقول أحد المستشرقين الألمان إن قبيلة المسيرية بالسودان أصلها «المصرية» صُغرت إلى «المصيرية» ثم خُففت إلى «المسيرية».

ولا يهم هل بعض هذه الوقائع حقيقة أو من نسج الخيال، فالمهم أنني كنت أشعر بنبض التاريخ حولي، مما ترك أثرًا عميقًا فيّ، وجعلني مشغولاً به منذ نعومة أظفاري. والانشغال بالتاريخ يعني ألا ينظر الإنسان إلى واقعه بشكل مباشر، وألاَّ يستجيب له بجهازه العصبي أو بصفحة عقله البيضاء، وألاَّ يرى اللحظة الراهنة بحُسبانها البداية والنهاية، إنما بحُسبانها نقطة يلتقي فيها الماضي بالمستقبل، وألاَّ يتصور أنه عالم بسيط يمكن اختزاله في قانون أو قانونين، وإنما يراه من خلال عدسات وبؤر وذكريات وتقاليد ورموز. أي أن الإنسان يواجه العالم من خلال إنسانيته وخريطتة الإدراكية المركبة (كما سأبين فيما بعد) لا من خلال ماديته، وأنه كفرد ليس هو البداية والنهاية، وإنما هو امتداد للماضي في الحاضر، ومن ثَمَّ في المستقبل. وبطبيعة الحال، لم أكن أدرك كل هذا

www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

حينذاك، ولكن الإدراك الواعي ليس هو السبيل الوحيد الذي يتشكل من خلاله وجدان الإنسان!

أشرت من قبل إلى أن أسرتي كانت تنتمي إلى ما يمكن تسميته «البورجوازية الريفية»، وهي بورجوازية في دخلها وفي فرديتها، ولكنها كانت تعيش خارج الإسكندرية والقاهرة، أي تعيش في الريف، فلم تتأثر بعناصر التغريب التي كانت تضرب بأطنابها في البورجوازية الحضرية، وفيما كان يسمّى بالأرستقراطية الإقطاعية (ذات الجذور غير المصرية وغير العربية). ولذا ظلت هذه البورجوزية الريفية محتفظة بالقيم المصرية والعربية والإسلامية، ولم تبحث عن الجاه والأبهة. (حينما كان أحد الأثرياء «يشتري» لقب البكوية أو الباشوية من جلالة الملك، كانوا يتعجبون في دمنهور من هذا السَّفَه). ومعظم أعضاء هذه البورجوازية كانوا أعضاء في حزب الوفد أو على الأقل متعاطفين معه (لم يكن والدي يشارك هذه الطبقة توجهاتها، فقد كان متعاطفًا للغاية مع الحزب السعدي!).

ولابد أن أذكر أنني أنتمي إلى جيل كان ينضج سياسيًا بسرعة مقارنًا بأجيال هذه الأيام، فقد كانت لي «مواقف» سياسية وأنا مازلت بعد في السابعة. وفي الأربعينيات، على سبيل المثال، كنا لا نكف عن التفكير في مسألة الحرب ضد الإنجليز وتحرير مصر. فكنا عند خروجنا من مدرسة قرطسا الابتدائية (وكنت لا أتجاوز السابعة) نلوح للجنود الإنجليز الذين تنقلهم القطارات من مصر إلى الإسكندرية (أو العكس) ونشير إليهم بعلامة النصر V، فيخرجون لتحيتنا فنقذفهم بالحجارة ونجري لنختفي في شوارع دمنهور وحواريها التي كنا نعرفها تمام المعرفة (ولعل ذكرياتي هذه هي التي جعلتني أتنبأ بالانتفاضة الفلسطينية قبل وقوعها). وقد كوَّنا أنا وأصدقائي، في شارع الأنصاري بدمنهور، جمعية «سرية» لمحاربة الإنجليز، وكانت «سرية» حتى لا يكتشف الإنجليز أمرنا في حالة دخولهم دمنهور مرة أخرى. ومن المحتمل أن الأمر كله لم يكن سوى «لعب عيال»، ولكن مما له دلالته أن «لعب العيال» كان يأخذ هذا الشكل السياسي الوطني. وكنت أصدر وأنا في السنة الأولى من المرحلة الثانوية، حينما كان عمري لا يتجاوز الحادية عشرة، مجلة مكتوبة بخط اليد يتداولها أقراني، هذا غير مجلات الحائط ومجلة دمنهور الثانوية المطبوعة والتي قمت بتحريرها وشهدت أول مقال منشور لي، وكان عن السلام وضرورته. ولم أكن فريدًا في هذا، فعشرات غيري من أقراني كانوا يفعلون ذلك.

www.scantopdf.eu

وقد اشتركت بحماسة بالغة في مظاهرات الطلبة ضد الملك فاروق في أوائل الخمسينيات عندما أقال وزارة الوفد التي ألغت معاهدة سنة ١٩٣٦ ثم عيَّن حافظ عفيفي رئيسًا للديوان الملكي، وهو شخصية كانت مكروهة من الشعب، إذ كان معروفًا بولائه للإنجليز واحتقاره للشعب المصري والقوى التي تمثله. (أنا هنا أعتمد على ذاكرتي وأرجو ألا تكون قد خانتني). وحينما بدأت مقاطعة البضائع الإنجليزية، سارعت إلى المشاركة فيها. وكنت قد بدأت هواية جمع الطوابع، فكنت أشتري مشمعًا لاصقًا للجراح من الصيدلية وألصق به الطوابع (الأمر الذي دمر كل مجموعتي في نهاية المطاف بسبب جهلي)، وكان هذا المشمع مصنوعًا في إنجلترا، فذهبت إلى الصيدلية لإرجاعه. وحينما سألني الصيدلي (الدكتور رفلة) عن السبب أخبرته أنه مصنوع في إنجلترا، ففرح كثيرًا من موقفي هذا وقرر إعطاءه هدية لي، فرفضت وأخبرته أن المقاطعة لا تتجزأ، فاتصل بوالدي ليخبره بما فعلت، وليعبِّر عن مزيد من فرحه. وكنا نقوم بحرق البضائع الإنجليزية في ميدان الساعة. وكأي تلاميذ في العالم، كنا ننتهز الفرصة ونحرق كتب اللغة الإنجليزية أيضًا، عسى الله أن يمن علينا وعلى الأمة العربية بالجلاء الكامل: جلاء القوات الإنجليزية عن مصر المحروسة، وجلاء اللغة الإنجليزية الكريهة عن كاهلنا!

أذكر مرة أن أستاذ اللغة العربية (الأستاذ عوف) طلب مني وأنا في السنة الثانية من المرحلة الثانوية أن أكتب موضوع إنشاء عن «حديقة منزلكم». والإنشاء لم تكن مادة نتعلم فيها كيف نرتب أفكارنا ونحولها إلى كلمات مكتوبة وبنية منطقية متماسكة، وإنما كانت قوالب لفظية جاهزة نحفظها عن ظهر قلب ثم نرصها رصًا حين تحين المناسبة. ومن هذه القوالب التي مازلت أذكرها مجموعة من الكلمات تعبر عن «موقفي» من الطبيعة: فهي تخلب اللب، وتشرح الصدر، وتملأ القلب روعة وجلالاً. وبالطبع كانت هناك الآيات القرآنية والأبيات الشعرية والأمثلة التي نرصع بها ما نكتب أو ما ننشئ. ضقت ذرعًا بكل هذا، فكتبت موضوع إنشاء أقول فيه ما أحس به. بدأ الموضوع بتأكيد أن منازل الفقراء ليس لها حديقة، وأن أطفالهم لا يعرفون معنى الحدائق ويعيشون بين أكوام القمامة، وهاجمت الظلم الاجتماعي بشكل عام. فأعطاني الأستاذ صفرًا على هذا الموضوع وأبلغ أهلي عن كتاباتي «الشيوعية». وبطبيعة الحال لم تكن لها أي علاقة بالشيوعية (التي لم أكن أعرف عنها شيئًا آنذاك) أو أي مذهب سياسي، وإنما كانت تعبيرًا عن رفض فتى يافع للظلم الواقع على أعضاء المجتمع.

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

وكنت أقرأ الصحيفة التي يصدرها حزب مصر الفتاة في أوائل الخمسينيات، وكان من بين كُتَّابها آنذاك سيد قطب. وأتذكر بطبيعة الحال هذا المقال الذي نشره الأستاذ أحمد حسين في جريدة مصر الفتاة، وكان المقال عبارة عن عدة صور لبعض المتسولين، وكتب فوقه عبارة «رعاياك يا مولاي» (وكانت إشارة خفية لمحاولات وزارة الوفد تملق الملك الذي كان يصطاف في كابري!). وانضممت إلى الحزب بضعة أيام، وانتقلت بعدها إلى الإخوان المسلمين. ثم حينما قامت ثورة يولية سنة ١٩٥٢ وجدت أنه من المنطقي أن أنضم إلى الحرس الوطني وهيئة التحرير، فالثورة ـ حسب تصوري حينذاك ـ ألغت الأحزاب مصدر الفساد. وفي منتصف الخمسينيات انضممت إلى الحزب الشيوعي، وبقيت فيه حتى عام ١٩٥٩.

وبرغم أنني أتحدث عن جيلي واهتمامه بالسياسة، فإنني يجب أن أذكر أيضًا أنني كنت مختلفًا إلى حدٍّ ما عن أقراني. فلم أكن أحب لعبة الكرة الشراب، وبرغم أني مارست لعبتي كرة السلة والبنج بونج بعض الوقت، فقد فعلت ذلك بدون حماسة واضحة، توقفت عنهما في سن مبكرة. وكنت أكره الألعاب التي تعتمد على الحسابات الرياضية مثل الشطرنج، أو على خليط من الحسابات والصدفة مثل الطاولة والكوتشينة، أو على خليط من الرياضة والمهارة اليدوية مثل البلياردو. (ولذا كنت أمقت لعبة البيسبول الأمريكية، أولاً لعنفها، وثانيًا لحساباتها المعقدة).

وحينما أقارن بين الاهتمام بالسياسة الذي كان أبناء جيلي يبدونه وعدم الاكتراث بالشئون العامة الذي يبديه أبناء هذا الجيل، أتعجب وأتساءل عن السبب في ذلك: هل هو انتشار التليفزيون وسيطرة وسائل الإعلام، أو غياب الأحزاب السياسية، أو تصاعد معدلات العلمنة (أي البحث عن اللذة والمتعة الشخصيتين) والعولمة (أي الإحساس بعدم الانتماء إلى وطن محدد وتقبل الأشكال شبه الحضارية العامة)؟ وعدم النضج السياسي هذا ليس ظاهرة مقصورة على مصر، بل هو أمر عام منتشر في كل أنحاء العالم. وإن كانت حركة الجماهير في مصر، بما في ذلك أطفال المدارس، والعالم العربي بعد انتفاضة الأقصى المباركة، جعلتني أعدِّل من رؤيتي بعض الشيء.

ومع هذا، يمكن القول بأن الأفراد يصلون في الغرب إلى سن الإنتاج الفكري وهم بعد في العشرينيات، فلا يضيعون وقتهم في المدارس الابتدائية والثانوية، بل يزدادون علمًا

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

ويكتسبون خبرة. ومستوى التعليم الجامعي مرتفع مما يعني أن الطالب يتم إعداده للحياة الفكرية المثمرة في هذه المرحلة. وبعد إتمام المرحلة الجامعية ينتقل المتفوق منهم مباشرةً إلى الدراسات العليا، دون تعقيدات لا نهاية لها ودون هموم مالية (فالمنح الدراسية في كثير من الأحيان تتكفل بهذا). ولكن الأهم من هذا أن الدارس في الغرب ليس عليه إعادة صياغة المقولات التحليلية السائدة، فهي مقولات تحليلية نابعة من التشكيل الحضاري والاجتماعي الغربي، ومن ثم يمكن تطبيقها على الواقع الغربي. ويكمن الإبداع في تطوير هذه المقولات وتطبيقها بطريقة خلاقة، إلا في حالة المتمردين الذين يهمشون أنفسهم من خلال رفض هذه المقولات.

كل هذا يقف على طرف النقيض من الوضع عندنا، إذ علينا أن نكافح ضد نظام تعليمي معوِّق (ازداد سوءاً وشراسة في الآونة الأخيرة). وحين نصل إلى الجامعة فهناك الأساتذة الذين يبذلون قصارى جهدهم لكي يفرضوا على الطالب آراءهم (التي «اقتبسوها» من كتب أجنبية)، وهناك المذكرات الحتمية والدروس الخصوصية التي جعلت من التعليم الجامعي «نكتة» باهظة التكاليف. ثم نصل إلى الدراسات العليا، فإن حل الطالب مشكلة التمويل فهناك الفقر في المكتبات، وهناك الأساتذة الذين يشرفون على عدد لا حصر له من الرسائل، بالإضافة إلى تفاصيل الحياة التي لا نهاية لها في مصر. وإلى جانب كل هذا هناك ضرورة أن يصوغ الباحث مقولاته الفكرية ونماذجه التحليلية، حتى لا يتبنى مقولات ونماذج لا علاقة لها بواقعه الحضاري والاجتماعي، وبالتالي غير قادرة على دراسة هذا الواقع.

حضر إلى مصر مرة أحد زملاء ابنتي من جامعة كمبردج، وكان متخصصاً في الأدب الروسي وحصل على الدكتوراه وهو دون الخامسة والعشرين، وبطبيعة الحال كان يجيد عدداً من اللغات الأجنبية. وتصادف أنني كنت مهتمّاً آنذاك ببعض جوانب تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا وجماعات القوزاق بسبب الدور الذي لعبوه في تاريخ الجماعة اليهودية في بولندا وأوكرانيا، فوجدته ملمّاً بهذه الأمور بشكل أذهلني إلى جانب معرفته بالآداب الغربية. إن تأخير تكوين المثقف في العالم العربي أمر يؤثر في التنمية، فهذا يعني أن الكثيرين يتساقطون في أثناء العملية التربوية، وأن من يخرج سليماً منها فإن سني العطاء عنده تكون محدودة للغاية.

www.scantopdf.eu

كان هناك في دمنهور مجموعة من المباني على الطراز العربي، وواحد من أهم المسارح في مصر، يُقال إنه لم يكن يضاهيه في روعته إلا دار الأوبرا القديمة، إذ إن محافظ (مدير) البحيرة في الأربعينيات، الشاذلي باشا، قرر أن يترك بصمته على المدينة فأسس هذه المباني. وكان المنزل الذي أقطن فيه على طراز «الآر نوفو Art Nouveau» (أي الفن الجديد). والآر نوفو فن وطراز معماري ظهر بين عامي ١٨٩٠ - ١٩١٠ في أوربا كجزء من ثورة الإنسان الغربي الرومانسية ضد مجتمع الصناعة والآلة الذي كان يحاول أن ينظر إلى كل شيء في إطار المنفعة المادية. وكنتيجة لهذا حاول فنانو الآرنوفو التحرر من الطرز التقليدية من خلال محاكاة خطوط الطبيعة (لا تقليدها بشكل واقعي أو فوتوغرافي). ولذا نجد أن خطوط الآر نوفو طويلة متعرجة متموجة، عادةً ما تأخذ شكل أزهار وبراعم وأجنحة وخمائل عنب وأشياء رقيقة أخرى في الطبيعة. وكان للخط أولوية على كل العناصر المعمارية الأخرى التي كان عليها أن تتبع الخط في تموجاته وتعرجاته. ويحاول معمار الآر نوفو المزج بين الزخرفة والبنية المعمارية والمواد الأخرى المستخدمة مثل الحديد والزجاج والسيراميك، كما يهدف إلى الوصول إلى ديكور داخلي موحد بحيث تتحول الأعمدة والألواح الخشبية إلى ما يشبه خميلة العنب. وبشكل عام، يميل الآرنوفو نحو عدم التناسق الدقيق (وكان المنزل يحوي أيضاً عناصر من الآرديكو art deco. وهو طراز يميل إلى التناسق الزائد، وخطوطه مستقيمة، ولم يخلب لبي مثل الآر نوفو).

ويبدو أن بعض كبار المهندسين من أتباع مدرسة الآر نوفو كانوا في مصر. فطلب منهم بعض باشاوات دمنهور أن يبنوا لهم بيوتهم ويزخرفوا لهم منازلهم. وقد اشترى جدي عمارة في شارع الأنصاري كان فيها عناصر كثيرة من الآر نوفو. أما شقتنا التي كنا نقطن فيها، فقد أخذناها بعد أن أخلاها المغازي باشا. وكانت حوائطها منقوشة بطريقة جميلة مذهلة، وكان هناك شباك من الزجاج الملون في غرفة نومي، إذ يبدو أن الباشا قد طلب من أحد أتباع هذه المدرسة أن يعيد صياغة المعمار الداخلي للشقة.

أذكر هذه التفاصيل لولعي الشديد بالمعمار العربي الإسلامي وبالآر نوفو. والأول أمر عادي ومفهوم، أما الثاني فلم أفهم سر ارتباطي المحموم به إلا بعد أن درسته ودرست منزلنا في دمنهور. كما أن معمار مدرسة دمنهور الثانوية هو الآخر قد ترك أعمق الأثر فيّ.

www.scantopdf.eu

وهو لا يختلف كثيراً عما يسمَّى «الطراز الكولونيالي». كانت واجهة المدرسة عبارة عن حديقة يسير فيها المرء بضع خطواتس، ثم يبدأ يصعد عدداً كبيراً من السلالم الرخامية (لعل عددها يبلغ الخمسين)، وفي القمة توجد عدة أعمدة ذات تيجان كورنثيه يتوجها فرنتون روماني. ولعل الهدف من هذا الطراز هو إدخال الرهبة في قلب المصريين من قوة الإمبراطورية وهيبة الحضارة الغربية. وحينما عُدت من الولايات المتحدة عشت في مصر الجديدة بالقرب من منطقة الكربة التي بنتها الشركة البلجيكية، صاحبة امتياز مصر الجديدة، على النظام العربي بعد تطويره، ثم بنت بعض الفيلات حسب طرز مختلفة، ثم يتوسط كل هذا قصر البارون إمبان (مؤسس مصر الجديدة) على النمط الهندي، وفي مواجهته يوجد مسجد السلطان حسين. وقد عمق كل هذا إحساسي بالمعمار وبأبعاده الجمالية. والمعمار هو الشكل الجمالي الذي يعيش فيه الإنسان حياته اليومية، وهو أيضاً انتصار للإنساني المركب على المادي المباشر، وللإنسان الذي يعيش في عالم متعدد الأبعاد على الإنسان الذي يعيش في عالم الآلة الرشيدة التي لا تكف عن الحركة الرتيبة.

كانت دمنهور مدينة حديثة، بها كثير من سمات المدن الحديثة: طرقات معبَّدة مستقيمة فسيحة - متنزهات عامة (كانت موسيقى الشرطة تعزف مرة كل أسبوع في حديقة النزهة التي ازدادت «تحضراً» وأصبحت مدينة ملاه والعياذ بالله!) - وجود ملحوظ للدولة (تبدى في مباني الدولة العديدة المميَّزة، وفي استعراض الشرطة كل يوم سبت صباحاً والذي كان يُدخل البهجة على قلبي، إذ كان يتقدم الطابور فريق الموسيقى ويتقدم الجميع جندي يمسك بعصا كبيرة يقوم بقذفها إلى أعلى ثم يلتقطها ويديرها، كما تبدى وجود الدولة في نادي البلدية الجميل الذي كان سعادة الباشا مدير المديرية يجلس فيه، وهو أهم شخصية في مديرية البحيرة، ويجلس معه كبار الموظفين). ومن سمات الحداثة الأخرى الطرق التي أسسها الاستعمار الإنجليزي لربط مدن مصر بعضها ببعض لييسر عملية الانتشار السريع لقواته.

كما كانت دمنهور مدينة تجارية، توجد فيها عائلات تجارية عريقة، وكان نشاطها التجاري يمتد إلى كل أنحاء مصر من الشلالات إلى الواحات. وكانت، إلى جانب هذا، من أكثر المدن تصنيعاً في العالم (بالنسبة لعدد السكان) في النصف الأول من القرن العشرين (حسبما قرأت في إحدى الدراسات) بسبب وجود عدد كبير من محالج القطن فيها.

www.scantopdf.eu

ولكن دمنهور، مع هذا، كانت على مستوى من المستويات قرية كبيرة. يوجد في وسطها، على سبيل المثال، مشتل دمنهور الضخم الذي كان يحوي كثيراً من النباتات، أذكر منها الكامكوات، وهي ثمرة في حجم البلحة ولكنها تنتمي إلى عائلة الحمضيات، كما كان يوجد عدد لا بأس به من الحدائق. ولا أدري هل اكتشفت في هذه الفترة شجرة المشمش، أو لا ؟ براعمها البيضاء، التي تنمو لفترة قصيرة، لا تزال تسحرني، ولذلك أزور قرية العمار بجوار القاهرة مرة كل عام، أقضي يوماً تحت الأشجار، أشاهد براعم المشمش البيضاء التي تشبه الثلج وهي تتماوج مع الأوراق الخضراء. وحينما يهب النسيم تتساقط بعض البراعم علينا أنا وزوجتي. ومع القهوة التي أرتشفها والسيجار الذي أدخنه، أترك الزمان والمكان وأتذوق طعم الأبدية، ولو للحظات ! وفي طريقنا إلى مدرسة دمنهور الثانوية، كنا نمر على حقول يزرعها فلاحون نشتري منهم الطماطم أو الخس، والمدرسة ذاتها كانت توجد في وسط الأراضي الزراعية. وكانت دمنهور مركزاً للقرى المجاورة يأتيها الفلاحون يوم الاثنين (يوم السوق).

والمجتمع الدمنهوري - شأنه شأن المجتمعات التقليدية - يرفض التبديد ويقدِّر «نعمة الله». فـ إذا سرنا ووجدنا قطعة من الخبز كان علينا أن نلتقطها، وبعضنا كان يقبلها ثلاث مرات ثم يضعها إلى جوار الحائط حتى لا يطأها أحد بقدميه. وكانت **خبرات التدوير** (بالإنجليزية: ريسايكلنج recycling) قوية للغاية في المجتمع، فكان لا يُلقى إلا بأقل القليل في سلال القمامة. أما بقية الأشياء فكان يتم تدويرها: أوراق الجرائد - علب الأكل المحفوظ - قشر البطيخ ولبه - بقايا الطعام. كل شيء كان يمكن إعادة توظيفه (علمت أن المجتمع المصري لا يزال من أكثر المجتمعات مقدرة على التدوير، مما يعني مقدرته على الاحتفاظ بتوازنه مع الطبيعة. ومع هذا يلاحظ أنه مع زيادة التقدم يتآكل نموذج التدوير ليحل محله نموذج التبديد). وكانت أمي متطرفة في حكاية التدوير هذه. فعلى سبيل المثال، تعلمت في أثناء الحرب العالمية الثانية، مع أزمة الكبريت، أن تحتفظ بلمبة «سهَّاري» وبجوارها قطع من الكرتون هي في واقع الأمر علب سجائر تم قصها. وكنا حينما نود إشعال «البابور البريموس»، نضع قطعة الكرتون في اللمبة لنشعلها، فنستخدم الشعلة بديلاً للكبريت. وقد أعجبتها الفكرة فظلت تمارسها إلى يوم وفاتها في منتصف السبعينيات وإن كان البوتاجاز قد حل محل البريموس. كما أن علب البودرة

www.scantopdf.eu

كانت تتحول، بعد غسلها جيداً، إلى أوان للملح والفلفل! ولم يكن الهدف هو «التوفير»، إذ لم يكن هناك توفير في العملية وإنما هو الالتزام بالتدوير، فكل شيء نعمة من الله سبحانه وتعالى.

ويبدو أنني ورثت شيئًا من هذا، سواء أكان حبي للأشياء القديمة، أم استخدامي للورق الذي سبق استخدامه (الورق الدشت) لأكتب على ظهره، أم ارتدائي الملابس حتى تَبلى تمامًا. وتشكو زوجتي من أن بعض الفقراء ممن تعطيهم ملابسي القديمة يقولون: «بلاش والنبي حاجات البيه»، لأنهم لا ينتفعون بها على الإطلاق. وزوجتي توافقهم بطبيعة الحال، إذ ترى أن ملابسي القديمة تصلح بالكاد لأعمال النظافة. وابني لا يختلف عني كثيراً في هذا، فهو لا يمتلك كثيراً من الملابس. وحينما ذهبنا إلى السعودية، لبس الثوب السعودي (شأنه شأن أقرانه السعوديين) وسعد كثيراً به، ولم يكلفنا هذا الشاب طيلة فترة ثلاث سنوات من سن الرابعة عشرة حتى سن السابعة عشرة، سوى ثمن ثلاثة أثواب سعودية تكلفت كلها حوالي ٢٠٠ جنيه مصري. وهذا درس للطبقة المتوسطة التي تدلل أبناءها وتشتري لهم الملابس المكلفة، فتفسد كل شيء من حولها: الأبناء ـ الطبيعة ـ الدخل . . . إلخ.

أذكر مرة أننا كنا في الإسكندرية نصطاف، وقررت أن أبني مع أولادي تمثالاً من الرمل، فأخذ شكل دوائر متداخلة، وزيناه ببعض أعشاب البحر، وغطيان زجاجات المياه الغازية، ثم أسميناه «تحية للتوازن البيئي وعقل الإنسان»، وهو اسم فلسفي ضخم بطبيعة الحال، كان يبدو مضحكاً حينما ينطق به أطفالي، ولكنني أفعل أشياء من هذا القبيل أحياناً، من قبيل المزاح ومن قبيل توسيع الأفق. فقد علمت ابنتي، على سبيل المثال، مصطلحي: أحادي البُعد ومتعدد العناصر (بالإنجليزية: مونو فاكتوريال وملتي فاكتوريا mono factorial and multi factorial)، وحينما كانت تنطق بهما كانت تثير الدهشة في نفس من يتحدث معها.

هذا لا يعني أن أولادي أصبحوا مختلفين تمامًا عن أقرانهم، فهم أبناء عصرهم ولحظتهم، خاصةً وأن المجتمع المصري (الذي تعيش فيه الملايين دون خط الفقر) قد نسي هذه الخبرات تمامًا. ولذا نجد أن أعياد الميلاد تحولت إلى هجمة سلعية حقيقية، وكذا عيد الأم، وبدأ المسوقون يخلقون مناسبات سلعية جديدة. ولذا نجد أنهم ـ شأنهم شأن بقية

www.scantopdf.eu

أطفال مصر - فقدوا كثيراً من الخبرات البيئية التي تضمن الاستمرار دون استهلاك الموارد الطبيعية. فحينما كنت طفلاً لم أكن أحصل على لعبة إلا كل سنة أو ربما عدة سنوات. وحينما كان والدي يعود من السفر، كان لا يحضر معه لعبًا وأشياء كما يفعل الآباء هذه الأيام، بل كان يحضر معه «أبو فروة»، فنجلس في الشتاء بجوار الوابور ونبدأ في تحميره. وحتى الآن حينما أكون في إستانبول أو برلين، حيث يُباع أبو فروة المشوي، أتوقف لأشتري بعضها وأجلس في إحدى الحدائق لآكلها ساخنة، وأستعيد بعض ذكريات الطفولة وأشعر ببعض الدفء العائلي. كما كانت لنا خبرات يدوية كثيرة، فنصنع مراكب من الورق وأراجوز ونستخدم الزراير وأشياء أخرى كثيرة لصنع اللعب. أما أطفالي فعدد اللعب التي يتلقونها كبير، مما أفقدهم المقدرة على تدوير الأشياء القديمة وتصنيع لعب خاصة بهم، ذات طابع فردي. وقد تدهور الأمر تماماً مع حفيدي، الذي وقع ضحية الجريمة المنظمة التي تسمَّى أعياد الميلاد (أهم الطقوس العلمانية في مجتمعنا) فإذا كان عدد زملائه في الفصل ٢٥، هذا يعني أنه يحضر ٢٥ عيد ميلاد ويحضر ٢٥ لعبة لزملائه، وهم بدورهم يفعلون الشيء نفسه. وفي يوم عيد ميلاده يصله عدد مخيف من اللعب، يغرق فيها تماماً. (الطريف أن أحد تلاميذي أحضر له أراجوز مصنوع من الورق، فانصرف حفيدي عن بحر البلاستيك واتجه بكل جوارحه نحو الأراجوز الشعبي، وهذا يعني أن الدنيا بخير، وأن النفس البشرية قادرة على المقاومة وأن الفطرة الإنسانية، في نهاية الأمر، ورغم كل شيء، سليمة).

ويظهر هذا التدهور الجيلي أيضًا في طريقة أكل الدجاج. كانت أمي - رحمها الله - تتعامل بكفاءة عالية مع كل أجزاء الدجاجة: تأكل لحمها، وتمص عظمها، وترمي ما تبقى للقطط. وقد أكون أقل كفاءة من أمي في التعامل مع الدجاجة المطبوخة، ولكني يمكنني أن آكلها بيدي فأعرف كيف أقطعها، وكيف آكل كل أجزائها، وأحيانًا يروق لي أن أتعامل مع العظم بطريقة لا تختلف كثيراً عن طريقة أمي، وإن كانت كفاءتي أقل بكثير من كفاءتها. ولكن أولادي، الذين يستخدمون الشوكة والسكين، يشكلون أزمة بيئية حقيقية، إذ يتركون أجزاء كثيرة من الدجاجة لأن الشوكة والسكين غير قادرتين على الوصول إليها. أما بخصوص العظام، فقد أصبحت فضلات تُلقى في صندوق القمامة، التي تتزايد على مر الأيام، حتى أصبح حرقها من أكبر مصادر التلوث في مدينتنا: القاهرة المقهورة. ولا أدري كيف سيكون الأمر مع حفيدي!

www.scantopdf.eu

ومن أكبر مظاهر عدم التبديد ما يسمَّى «الزيارة». فحينما كان بعض الأقارب يأتون من الريف للإقامة معنا بعض الوقت، أو حينما كان أحد الخُطَّاب يأتي لزيارة عروس المستقبل، فإنهم كانوا يحضرون معهم «الزيارة» التي تتكون أساسًا من مأكولات مثل السمن البلدي والبطاطس والبرتقال وربما دجاجة أو بطة مذبوحة أو حية، وهكذا. فالهدية هنا يمكن «تدويرها» فورًا، بدلاً من أن تتحول إلى «شيء» آخر يُضاف إلى الأشياء الأخرى التي لا لزوم لها يكتظ بها المنزل.

حينما عقدت حفل زفاف ابني، كنت أعرف أنه سيتبقى كثير من الطعام. فذهبت إلى السيد المدير المسئول في الفندق وسألته عما سيحدث لبقايا مأدبة العشاء، فأجابني بعجرفة غير عادية وباللغة الإنجليزية «جاربيج garbage» أي «قمامة». فقلت له بهدوء شديد إنني ضد التبديد، وطلبت منه ألا يلقي بشيء، وسأحضر كراتين وأواني وحللاً لآخذ ما تبقى لتوزيعه على المحتاجين في المنطقة التي أسكن فيها. فنظر إليَّ بامتعاض شديد، بحُسباني شخصًا غير متحضر، ولكنني أصررت على موقفي. غير أنه قرب نهاية السهرة، جاء كبير الجرسونات، وأخبرني أن ما قاله المدير لا أساس له من الصحة، فالعاملون يأخذون البقايا ليوزعوها على أسرهم. وهنا أصبح للمسألة بُعد بيئي إنساني مختلف، فاتفقنا على اقتسام «القمامة»، يأخذون هم النصف، ونحن النصف الآخر لتوزيعه على المحتاجين في مكان سكننا، وقد كان. وتحول حفل الزفاف من لحظة تبديد وقمع إلى لحظة تدوير ورخاء ومشاركة.

وقد حدث الشيء نفسه حينما دخلت المستشفى لإجراء عملية جراحية في عمودي الفقري، فقد فوجئت بالقدر الكبير من الورد والشيكولاته، والذي يعبر عن حب أصدقائي، ولكن حسي البيئي الدمنهوري استيقظ مرة أخرى، وطلبت من مساعدي أن يتصل بأصدقائي ليخبرهم بمواعيد الزيارة وشروطها: ألا يحضر أحد وردًا أو شيكولاته وأن يعطي لأحد المساكين مالاً ويطلب منه أن يدعو لي بالشفاء. وقد امتثل بعض الأصدقاء لطلبي. كما كانت زوجتي تقوم بتوزيع الورد والشيكولاته التي جاءت إليَّ على الجميع خارج غرفتي.

وكان إيقاع الحياة في دمنهور هادئًا، فكان عندنا دائمًا متسع من الوقت. كان اليوم ينقسم إلى قسمين: الصباح حين يعمل الناس، ثم بعد الظهر حينما يتزاورون، أو يذهبون

www.scantopdf.eu

إلى المتنزهات أو الحقول المجاورة، ويفصل بين القسمين القيلولة. ولم يكن الوقت يُبدد في الانتقال نظراً لصغر حجم دمنهور. كنا على سبيل المثال نصل إلى مدرسة دمنهور الثانوية (التي كانت تقع في أطراف المدينة آنذاك) في بضع دقائق. ولنقارن هذا بيوم العمل الأمريكي [والمصري الآن] إذ يذهب كل عامل إلى محل عمله في الساعة الثامنة والنصف صباحًا على سبيل المثال ولا يغادره إلا في حوالي الثالثة أو الرابعة. وعادةً ما يستغرق حوالي ساعة ونصف الساعة في عملية الانتقال. وإذا أضفنا إلى كل هذا تزايد التفاصيل بشكل مذهل، نجد أن يوم الإنسان الحديث يُبدد تمامًا ويجرد من أي إيقاع إنساني، بل إنه يهدد الحياة الأسرية ذاتها.

كما أن الإيقاع البطيء يعني أن الأفراد لا يتنقلون كثيراً، فالأب موجود والأم موجودة والأخوال والأعمام والخالات والعمات موجودون. وهذا يخفف إلى حدٍّ كبير من عبء تنشئة الأطفال. فالأب يوجد على مقربة من المنزل يمكن استدعاؤه في أي وقت إن نشأت حاجة لذلك. وإذا أرادت الأم عون أحد من الكبار، عند غياب الأب، فهناك دائمًا من يحل محله. (ولذا أزعم أن المطلوب ليس «تحرير المرأة» وإنما «تقييد الرجل». فالذي حدث أن حركية الرجل في العصر الحديث قد زادت بشكل غير إنساني، مما يعني بُعده أو غيابه عن المنزل، فيقع عبء تنشئة الأطفال على كاهل الأم وحدها إلى جانب أعبائها الأخرى).

وإيقاع الحياة السريع أمر يحدد سلوك كثير من الأفراد، إذ إنه في غياب متسع من الوقت يدوس الناس بعضهم بعضًا. كنت أسير مرة بسيارتي في شارع ضيق بالقاهرة وكان هناك رجل عجوز يعبر الشارع، فوقفت له حتى أعطيه الفرصة، وكانت ورائي سيارة ظل صاحبها يضغط على الكلاكس. فنزلت من سيارتي حانقًا وأخبرته أن رجلاً عجوزاً يعبر الشارع، ثم سألته سؤالاً خطابيّا: «لو كان هذا والدك، أفكنت فعلت الشيء نفسه؟» فقال بوجهه المتجهم: «نعم». فضحكت لصدقه وصراحته وإحساسه بعبث مقاومة الإيقاع الحديث اللعين. هذا على عكس ذلك السائق الذي كان يقف ورائي بسيارته في الساعة الثالثة ظهراً أمام جامع ابن طولون في أحد اختناقات المرور الشهيرة في الأسبوع الأخير من رمضان. وظل هو الآخر يضغط على الكلاكس ويطلب أن أتقدم «عجلة قدام والنبي»، أي مسافة صغيرة جدّا تعادل مدار عجلة واحدة. فقلت له: «كلنا واقفون، فلمَ أتحرك هذه المسافة الصغيرة؟»، فأجاب: «علشان تديني شوية أمل». ويبدو أن هذا السائق قد قرر عن وعي ألا يستسلم لليأس الذي يولّده الإيقاع اللعين.

www.scantopdf.eu

كانت الأجيال في دمنهور متقاربة. كنا كلنا نسمع الأغاني نفسها تقريبًا، ونلبس الملابس نفسها، ونتحرك في الحيز نفسه، ونشارك في المناسبات نفسها، إذ كانت هناك مجموعة من القيم الأخلاقية والمعرفية والجمالية نؤمن بها جميعًا، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير أو بين الكبير والصغير. لم يكن هناك رداء شبابي أو أغانٍ شبابية أو أماكن يرتادها الشباب وحدهم، فكل الأجيال كانت متقاربة.

ويقف هذا على طرف النقيض مما يحدث الآن؛ فالفجوة بين الأجيال آخذة في الاتساع، والصراع بينها يزداد حدة، ولم تعد أحلام الكبار تشبه أحلام الشباب، ولم تعد الأحزان هي نفس الأحزان. وقد شاهدت هذه الظاهرة بشكل أكثر حدة في الولايات المتحدة حين ذهبت إلى جامعة رتجرز، فقد تصادف أنني بلغت سن الخامسة والعشرين بعد وصولي بأسابيع. وأنا لا أحتفل البتة بعيد ميلادي، باعتبار أنني غير مسئول عنه، ومع هذا استخدمنا هذا اليوم تُكأة لنخرج أنا وزوجتي ونكتشف المكان الجديد. وكان هناك في مدينة نيو برونزويك كافتيريا صغيرة للطلبة تطل على نهر الراريتان فذهبنا إليها. وبعد دقائق لاحظنا أن كل من حولنا يصغرنا سنّا فتركنا المكان. وبعدها علمنا أن هذه الكافتيريا مخصصة لطلبة مرحلة الليسانس وحسب، وأن الخريجين يذهبون لأماكن أخرى. لم تكن هناك قواعد مكتوبة وإنما كان هذا هو المفهوم.

وأذكر واقعة أخرى حدثت لي في الولايات المتحدة. كنت في سن الأربعين تقريبًا، وكانت إحدى عاداتي أن أجري في الحدائق في المدينة الجامعية لأخفف من حدة التوتر الذهني ولأزيد من لياقتي البدنية. وبينما كنت أعدو، وجدت بعض الشباب في سيارة يقولون بسخرية: «اذهب واحرق نفسك». فلم أفهم ما يقولون، خاصةً وأن الشباب الأمريكي، على الأقل في المنطقة التي كنا نعيش فيها، كانوا مهذبين للغاية. وحينما استفسرت من أصدقائي، أخبروني أنني في مثل هذه السن لابد أن أعاني مما يسمَّى أزمة منتصف العمر (بالإنجليزية: ميدلايف كرايسيس midlife crisis) والتي تعني أن ما تبقى من عمري أقل مما فات، وأنه لا يوجد مجال للتجريب والخطأ. فدُهشت كثيرًا لأنني لم أكن قد بدأت حياتي الفكرية بعد، وأعرف كثيرًا من المفكرين والأدباء في الشرق والغرب والشمال والجنوب ممن بدءوا حياتهم بعد سن الأربعين!

www.scantopdf.eu

لم يعد هناك في الغرب مجرد فجوة أو صراع بين الأجيال، وإنما تطاحن وحشي، وفردية مطلقة، لدرجة أن الشاب الذي يصل إلى سن ١٦ عامًا عليه أن يجد منزلاً مستقلاً لنفسه، إذ إن عائلته ترفض الاستمرار في الإنفاق عليه. وعلى الإنسان الذي يصل إلى سن الستين أن يجد ملجأ للعجزة لأن أبناءه لن يسألوا عنه إلا مرة واحدة كل سنة، عادةً في الكريسماس. وأحيانًا أتساءل: هل سنصل إلى هذه الدرجة من «التقدم» في يوم من الأيام؟ وحينما أفكر في الإجابة يصيبني الهلع. (وتعود ظاهرة صراع الأجيال هذه إلى مركب من الأسباب من بينها تآكل الأسرة كمؤسسة اجتماعية، وتراجع الإحساس بالهوية القومية المشتركة، وتزايد معدلات الفردية وما يصاحبها من نفعية وتزايد الحس البراجماتي).

ودمنهور - بحُسبانها مدينة/ قرية - كانت تعيش داخل إطار صارم من القيم والشعائر الدينية والعُرفية التي تضبط حركة كل شيء: منْ يُقبِّل يد منْ؟ منْ يُفسح الطريق لمنْ؟ ما واجبات كبار العائلات؟ وما حقوقهم؟ وما واجبات الأهالي وحقوقهم؟ أذكر مرة أن بواب إحدى عمارات جدي أمسك يدي ليُقبِّلها فتركتها له ليفعل ما يريد. ولكن والدي نهرني بعدها، وأخبرني بأنه كان من المفروض ألا أترك له يدي، بل كان عليّ أن أسحبها وأقول «أستغفر الله». فأخبرته أنني رأيت كثيرين يُقبِّلون يد جدي، فكان رده أن جدي أمر مختلف تمامًا عنه وعني. ولم أمارس هذه التجربة مرة أخرى إلا في قونيه في تركيا. فحين قمت بزيارتها عام ١٩٩٧، وبدأ الناس يخاطبونني بلقب «فضيلة الشيخ» أو «الأستاذ» قلت: لا بأس، فأنا الآن من المفكرين الذين يُقال لهم «إسلاميون». ولكن حينما بدأ بعضهم في تقبيل يدي كان وجهي يحمر خجلاً. ورداً على ذلك ولإخفاء إحساسي بالحرج، كنت أنحني بطريقة مُبالغ فيها على الطريقة اليابانية. وقد لاحظ أحد المرافقين حيرتي وحرجي، فأخبرني أن على صغار السن أن يُقبِّلوا دائمًا أيدي من هم أكبر منهم سنًا، وأنها عادة عثمانية استمرت في تركيا العلمانية.

كان المجتمع في دمنهور يحدد كثيراً من حركات المرء وسكناته. ففي أمر نتصور أنه خاص وفردي جدًا مثل الملبس، كان المجتمع (وليس مصمم الأزياء في باريس) يقرر للأفراد، وخاصةً للنساء، ماذا يلبسون. وحينما أطلت الحداثة برأسها أصبح غطاء الرأس من أهم الرموز التي تبدى الصراع بين التقاليد والحداثة من خلالها. حينما كنت طفلاً في مدرسة العريان الابتدائية عام ١٩٤٣ كان عليّ أن أرتدي طربوشًا، نلعب به أحيانًا وننظفه

www.scantopdf.eu

ونكويه أحيانًا أخرى. ولكن كان علينا ارتداؤه في طابور الصباح مهما كانت الظروف. وحين دخلت مدرسة دمنهور الابتدائية الأميرية كنت أرتديه عدة سنوات، ولا أذكر متى توقفنا عن ارتدائه. وظل الرجال يرتدون الطربوش حتى عام ١٩٥٢، حين اختفى تمامًا، إلا من بعض المسنين ممن أصروا على الاحتفاظ به رمزًا للهُوية. وفي المدرسة الابتدائية كنت أرتدي بنطلونًا قصيرًا (الشورت)، ولكن حين دخلت السنة الأولى من المرحلة الثانوية (نظام قديم) وكان عمري أحد عشر عامًا تقريبًا لبست البنطلون الطويل.

أما بالنسبة للمرأة فأمرها كان أكثر تركيبًا. فالفتيات في سن الزواج كان من المصرح لهن أن يكشفن رءوسهن وأن تتدلى شعورهن الجميلة والقبيحة (بل كن يلبسن الفساتين التي لا أكمام لها [الجابونيز] التي صُعقت لرؤيتها لأول مرة في دمنهور). وكن في الأفراح يرتدين أزياء مكشوفة، حتى يمكن للأمهات وعرسان المستقبل معاينة كل شيء دون حرج! أما المتزوجات، فينقسمن إلى قسمين: الصغيرات منهن كن يرتدين الإيشارب، أما الكبيرات فكن يرتدين البرقع واليشمك والملس (وأنا هنا مازلت أتحدث عن البورجوازية الريفية في الأربعينيات، فسيدات البورجوازية الحضرية المقيمات في دمنهور والأرستقراطيات كن يرتدين الملابس الغربية والمعاطف المحلاة بالفرو، ثم تبعتهن سيدات وآنسات البورجوازية الريفية بعد الحرب العالمية الثانية!). وكان على الخادمات (والفلاحات) تغطية رءوسهن أيضًا ولكن بالمنديل الفلاحي «بأوية»، وهو غطاء للرأس ملون مزين بالترتر يُدخل البهجة على القلب، ولكنه مع هذا كان رمز الانتماء لطبقة الفلاحين والخدم. (هذا على عكس السعودية، فهناك كانت السيدة السعودية تسير إما محجبة تمامًا وإما منقبة، وبجوارها خادمتها الفلبينية تلبس الچينز وتدلي شعرها! ولله في خلقه شئون!).

كما كان لبس «السيغة» أو المصُوغات (أي الأساور والعقود والقروط والخواتم الذهبية) مسألة جوهرية لأنها كانت هي أفضل طريقة للادخار (لا ينافسها سوى المشاركة على البهائم، وهو أن يشتري المرء بقرة أو جاموسة أو نصف بقرة ونصف جاموسة يربيها له أحد الفلاحين نظير اقتسام الأرباح!). فلم يكن أحد يعرف طريقه إلى «البنك»، ولم يكن يثق به، ولذا كانت المرأة تؤمِّن «مستقبلها» عن طريق ما تلبسه من مصُوغات (كما أن زوجها كان يحقق قدرًا من التراكم الرأسمالي بنفس الطريقة). كانت زوجات الأثرياء يلبسن العقود والأساور (كان أحدها يأخذ شكل ثعبان، فكانت النسوة يلبسن أساور على

www.scantopdf.eu

هيئة ثعابين ذهبية لها عيون من الياقوت الأحمر أو الأزرق، ورءوسها مرصعة بالماس الأبيض، وكنت أخافها وأكرهها بعمق، ولعل هذا سر كرهي للذهب حتى الآن). أما زوجات الفلاحين فكن يرتدين العقود الكبيرة التي تسمَّى «الكردان»، كما كن يرتدين القروط التي تأخذ شكل مخرطة والتي كانت تُباع، مع غيرها، في مصوغات الجمل. كان الزوج كلما فتح الله عليه اشترى لزوجته المزيد من المصُوغات، وخصوصًا الأساور، التي كانت تبيع بعضها في أثناء أي ضائقة مالية. ويبدو أنه وقع الاختيار على الأساور لأن من السهل حملها ومن الصعب سرقتها. كما أن ثمنها معقول، ومن الصعب ملاحظة اختفاء «جوز إسورة» من مجموع دستة على سبيل المثال. فالأساور كانت تحقق سيولة نقدية، لا يمكن للعقود أو القروط أن تحققها. وبطبيعة الحال كان ثمن الذهب ثابتًا، على عكس النقود. (لا يزال هذا التقليد قائمًا حتى الآن، وقد سمعت أن ثمن الذهب في الآونة الأخيرة قد انخفض لأن كثيراً من الأمهات المصريات يبعن أساورهن لتغطية تكاليف الدروس الخصوصية، التي تكلف الشعب المصري سبعة بلايين جنيه كل عام!). ومع هذا يمكن القول بأن المصوغات الذهبية لم تكن وسيلة تهدف إلى الادخار وتحقيق التراكم وحسب، فهي كانت أيضًا علامة من علامات الثراء وتأكيد المكانة الاجتماعية، وهو أمر مهم للغاية في مجتمع دمنهور التقليدي.

كان المجتمع يحدد كيف تُقام الأفراح والجنازات، كما كان يحدد المدة المسموح بها للفرح والحزن، كل شيء يتبع إيقاعًا صارمًا لا يلحظه أحد لأنه تم استبطانه تمامًا، وتوحد به الجميع. كان الفرح في دمنهور مناسبة اجتماعية، فإن كان الفرح من أفراح الأثرياء فهذه كانت مناسبة يفرح فيها الجميع، إذ كانت الولائم تُقام للجميع ليأكلوا ويشبعوا، فيما يشبه موائد الرحمن، وتوزع علب الحلوى على الجميع. على عكس أفراح هذا الزمان التي تتطلب استيراد الطعام من الخارج (لحم النعام والغزال والجرجير السويسري، على سبيل المثال) ليهنأ به الضيوف في الداخل، ومن هنا يتطلب الأمر استدعاء قوات الأمن المركزي، لتفريق المتظاهرين الفقراء في الخارج! فالفرح أصبح هو اللحظة غير الإنسانية التي يتم فيها استعراض الثروة والتباهي بها وتزداد فيها حدة الصراع الطبقي، بعد أن كان اللحظة الإنسانية التي يتم فيها إسقاط الحدود الاجتماعية مؤقتًا، ويتم تقليل حدة الصراع الطبقي ليعبِّر الجميع عن إنسانيتهم المشتركة.

www.scantopdf.eu

بلغت تكاليف أحد الأفراح مليوني جنيه. وبعد شهرين بلغت تكاليف فرح آخر سبعة ملايين جنيه (أزهار من إندونيسيا - ألف كيلو من السالمون المدخن - ومظاهر أخرى من السفه)، في الوقت الذي لا نعرف أن هؤلاء الرأسماليين الجدد (القطط السمان) قد تبرع بمثل هذه المبالغ لإنشاء مستشفى أو لدعم إحدى الجامعات . . . إلخ. وقد ظهرت أخيرا ظاهرة «مخرج الأفراح»، وهو شخص مهمته تحويل الفرح (الخاص) إلى ما يشبه الاستعراض العام. ففي فرح أحد الأثرياء في الإسكندرية قام بتوزيع فيلم فيديو على المدعوين عن حياته الرومانسية مع عروسه قبل الزواج وكانت بعض المناظر بالحركة البطيئة (slow motion). وفي فرح آخر، قاموا بإحضار مخرج كندي لإخراج الفرح تقاضى حسبما سمعت ٢٠ ألف دولار. وكان الفرح يتكون من عدة «مناظر» أو حلقات، لعل أكثرها غرابة (ومن منظوري أسوأها) هو المنظر التالي: تدخل أم العروسة طويلة للغاية وتسير وكأنها عربة (فهي تقف على رافعة بأربع عجلات وموتور). وتحرك الأم شفتيها بأغنية «حبيبة أمها» التي كانت قد تم تسجيلها من قبل في أحد الأستوديوهات. وحين تنتهي الأغنية تفتح الأم فستانها فتخرج ابنتها / العروسة منه، لأن حبيبة أمها كانت تقف تحتها طيلة الوقت على الرافعة/ السيارة، ثم تذهب العروسة بعد ذلك وتعود على موتوسيكل مع زوجها وقد ارتديا زيّا يليق براكبي الموتوسيكلات. وقل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم! هذا بخصوص أفراح الأثرياء، أما أعضاء الطبقة المتوسطةً فهم يكتفون بإحضار فرَق غناء ورقص، وتشغيل الميكرفونات بصوت عال يصعب معها الحديث مع مَنْ بجوارك، بل وحتى الاستماع إلى الغناء والموسيقى.

كنا في مجتمعنا التقليدي هذا نذهب إلى أداء صلاة الجمعة في مسجد الحبشي (أو مسجد التوبة)، أما الصلوات الأخرى فكنا نؤديها في أي مسجد (أو زاوية) على مقربة من محل العمل. كانت الصلاة والزكاة جزءاً من الحياة، وليستا مجرد «فروض» يؤديها الإنسان أو شعائر يقيمها. فالحياة بدون الصلاة والزكاة كانت لا معنى لها. ومثل كثير من أقراني كنت أجوِّد قراءة القرآن، وحاولت حفظ القرآن الكريم دون جدوى، على عكس صديق الطفولة (الدكتور عطية حامد) الذي كان يحفظ كل شيء عن ظهر قلب وبسرعة.

ولعل استمرار المعايير والأوضاع التقليدية في مجتمع دمنهور هو الذي جعل أمي غير قادرة على استيعاب الحساسية الجديدة التي بدأت تظهر: الرغبة في المتعة في حد ذاتها

www.scantopdf.eu

بدون هدف أخلاقي أو عملي. ولذا كانت تحب شجرة الخوخ الكبيرة لأنها تعطينا ثمراتها. أما الورد فكان يسبب لها مشكلة، إذ كنا نحاول تزيين المنزل به وكانت لا تمانع، ولكنها كانت تطالب أن نصنع من بعضه مربى الورد! وكانت ترى أن ذهابنا إلى السينما مضيعة للوقت. فكنا نختلق الحجج «التقليدية» حتى يمكننا الإفلات من قبضة هذه الرؤية. فعلى سبيل المثال، أذكر أنني عشقت مسلسل زورو. (كانت أفلام المغامرات تُعرض على هيئة مسلسلات وتتوقف الحلقة في لحظة حرجة يكون فيها البطل ["الولد» أو «شجيع السيما» كما كنا نسميه] أو البطلة [البنت] أو كلاهما مهددين بالخطر. وبطبيعة الحال كان البطل، بما عُرف عنه من مقدرات جسمية وعقلية خارقة، يستطيع الإفلات). ولتبرير ذهابنا لنشاهده كنا نؤكد لأمي أنه «يحض على الأخلاق الحميدة"، نقولها بالفصحى حتى تقتنع وتعطينا القروش اللازمة للانطلاق لسينما البلدية. (كانت الأفلام الأجنبية تعرض على الشاشة، وكان هناك شاشة أخرى صغيرة بجوارها تظهر عليها الترجمة).

ولعل كون دمنهور مدينة/ قرية، حديثة/ قديمة يتبدى من خلال ظاهرة مثل التطبيب، إذ كان الطب العلمي (الذي نمارسه الآن) معروفًا، والأطباء خريجو كلية الطب كانوا يمارسون مهنتهم، والتمرجية الذين يعطون الحقن المؤلمة (تحتوى عادةً على زيوت مقوية) كانوا يمارسون حرفتهم بكل ما أوتوا من قوة وصادية. وحينما كنت طفلاً ذهبت إلى الإسكندرية لإزالة «لحمية» في أنفي كانت تسبب لي ضيقًا في التنفس. ولكن إلى جانب ذلك كان هناك العلاج بالأعشاب، وكان المجبِّراتي شخصية أساسية، وكان هناك «الحكيم» الذي يعرف العائلات وتاريخها الطبي، ويعرف معظم الأفراد في مجتمعه، وكان هذا يساعده كثيراً في تشخيص الداء ووصف الدواء. وإلى جانب هذا كان هناك الزار الذي كان خليطًا من الحفلة وجلسة العلاج النفسي. (حينما كنت طفلاً دخلت مرة حفلة زار أقامتها خالتي أم صلاح فوجدت امرأة جالسة تلبس ملابس بيضاء ورجلاً يقرع على الدف، ففزعت مما رأيت وخرجت، ومن يومها لم أر أي حفلة زار ولو في فيلم فيديو).

ويبدو أنهم لم يكونوا يعرفون كثيراً عن مرض الحساسية، الذي كنت مصاباً به. كنت أصاب دائمًا بنزلة شُعَبية. فكانت تُعالج بما يسمَّى برطمانات الهواء الساخن. فكنت أستلقي على بطني وأكشف ظهري ثم يأتون بشمعة صغيرة يضعونها على ظهري (ويا ويلي لو سقطت نقطة من الشمع الساخن على جلدي) ثم يضعون فوقها كوبًا صغيراً يشبه

www.scantopdf.eu

البرطمان فتنطفئ الشمعة بطبيعة الحال. ولكن يبدو أن الهواء كان يُفرغ داخل البرطمان فيمتص لحمي، وتتكرر العملية إلى أن يصل عدد البرطمانات الملتصقة بظهري من ٦ - ١٠. وأظل مستلقيًا على بطني وقتًا قد يصل إلى الساعة تُنزع بعدها البرطمانات. وقد شاهدت فيلمًا فرنسيًا عن فرنسا في القرن الخامس عشر، وقد عُولج الملك في هذا الفيلم بهذه الطريقة، مما يبين أنها جزء من التطبيب في المجتمع التقليدي.

ولعل اختلاط الطب العلمي والطب التقليدي يظهر في هذا الطبيب الذي جاء مرة إلى منزلنا وكشف علي، وحينما عجز عن التشخيص، قال: «قل لأمك تبخرك». فكان بذلك نموذجًا حيًا لاختلاط الحداثة والتراث! ومع هذا يجب أن أشير إلى شيء طريف، وهو أنه مع ظهور أشكال بديلة من التطبيب أخيرًا، ومع اكتشاف الأعشاب والإبر الصينية أصبح الطب العلمي الآن يسمى «الطب التقليدي»! وسبحان مغيِّر الأحوال.

ونفس الازدواجية تظهر في المدارس، فعلى سبيل المثال، كنا نحمل في المدرسة الأولية (التي تسبق المرحلة الابتدائية) لوحًا أسود نكتب عليه بالإردواز، وهو حجر أبيض كان يمكن الكتابة به على اللوح ومسحه دون آثار جانبية، على عكس الطباشير الذي كان يثير الغبار وتتسخ يد من يستعمله. وإلى جانب اللوح كانت هناك الريشة، وكان على الطالب أن يُحضر زجاجة الحبر من المنزل يوم السبت لملئها، كما كان عليه أن يتأكد من أن سن الريشة على ما يرام. ولكن تطورت الأحوال وظهر القلم الحبر، وبعده ظهر القلم الجاف الذي غيَّر الأمور بشكل جوهري.

وكان الطلبة يحترمون أساتذتهم احترامًا جمًا، ويخافون من حضرة الناظر (كم كانت فرحتنا عندما يحيينا الأستاذ خارج صفوف الدراسة!). وكان طابور الصباح هو المناسبة اليومية التي يعبِّر فيها الطلبة عن ولائهم للنظام. وكان هناك ما يسمى بـ «التفتيش» (أعتقد أنه كان دائمًا يوم السبت، أول أيام الأسبوع). فيقوم الطلبة بفرد أياديهم إلى الأمام، ويمر المشرف ليتأكد من أن أظافرهم قد قُصت وأن أحذيتهم لامعة. ومع هذا، وبرغم كل هذا الانضباط، كانت هناك مناسبات تسقط فيها الفروق، مثل الحفلة المدرسية السنوية، حيث كان الطلبة يقلدون أساتذتهم بطريقة ساخرة، أو يقدمون المسرحيات التي تسخر مما هو قائم. وكان هناك تلك الأيام التي يُضرب فيها الطلبة عن الدراسة ويلقون بالخطب النارية ضد الحكومة أو الملك (كان الشاعر فتحي سعيد - رحمه الله - من زعماء الطلبة في

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

دمنهور الثانوية، وكثيراً ما كان يُلقي بقصائده الملتهبة علينا). ثم يخرجون بعد ذلك ليطوفوا بدمنهور معلنين عن موقفهم السياسي. فكان هناك مثلاً يوم الشهداء وذكرى وعد بلفور وذكرى حادثة كوبري عباس. ولكن شهد عاما ١٩٥٠ و١٩٥١ مظاهرات دائمة ضد الملك. وبرغم أن مجتمع دمنهور التقليدي مبني على النظام، فإن المظاهرات كانت تندلع باستمرار، ربما لأن «الأهالي» كانوا متعاطفين مع أبنائهم من الطلبة.

رمضان في دمنهور

قضيت معظم طفولتي في دمنهور، وأكثر ما أتذكره منها هو شهر رمضان والاحتفالات التي كانت تصاحبه. كان الاستعداد له يسبقه بعدة أسابيع، إذ كنا نشتري الياميش والمكسرات ومستلزمات الخشاف وقمر الدين. كان الإفطار لحظة يجتمع فيها أعضاء الأسرة، فتصمت المدينة تماماً انتظاراً لمدفع الإفطار، ثم يدوي في جلال وتنطلق معه صيحات الأطفال المرحة لمدة ثوان، ثم يخيم الصمت مرة أخرى، ثم تبدأ الأسرة في تناول طعام الإفطار. فلم يكن هذا الوحش المخيف، التليفزيون، قد اقتحم حياتنا بعد، ولم تكن الفوازير وما شابه من برامج، قد انتشرت كالبكتيريا بعد. كان طعام الإفطار يتكون من كل ما لذ وطاب: يبدأ بالخشاف أو قمر الدين (اللذين لم أحبهما قط منذ طفولتي - لسبب لا أعرفه)، ثم يستمر إلى أن نصل إلى الكنافة والقطائف الحتميين. ومع هذا، كان هناك بعض الأتقياء ممن كانوا يفطرون بتناول بعض التمر باللبن ثم يصلون، وبعد ذلك يتناولون إفطاراً متواضعاً.

ولم يكن النمط الاقتصادي السائد في المجتمع محدداً متبلوراً، إذ كانت هناك أشكال من الاقتصاد العائلي. ويتبدى هذا في عدة مظاهر من أهمها عدم وجود ساعات عمل محددة. ولكن عدم التحدد كان يظهر بشكل أوضح في رمضان، فكان الجميع يعمل من الظهيرة إلى قرب السحور. وكنا، طلابَ المدارس، نتخلى عن هويتنا هذه، وينضم كل منا إلى أبيه، يمارس معه مهنته. ولذا كنت أجد نفسي أعمل في محل أبي أبيع تارة أو أجلس على الخزينة تارة أخرى، آخذ فواتير الزبائن وأحاسبهم على القيمة الواردة فيها، ثم أختمها بختم «خالص». وكان هذا مصدر فخر كبير، إذ كان يضعني في مصاف الكبار. ولكني، للأسف، لم أكن كفئاً في أي من هذه الأعمال، خصوصاً أعمال

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

الخزينة، لسبب بسيط وهو أنني لا أجيد الحساب (كنت أرسب في هذه المادة دائمًا) . ولذا كان والدي يلجأ إليَّ حين لا يكون أمامه خيار آخر. وكان يطلب مني في معظم الوقت أن «أراقب» حركة البيع لأضبط النشالين واللصوص، الذين يندسون بين الزبائن في مثل هذه المناسبات. ومع اقتراب العيد كنا نمكث معظم الوقت في المحل، لأن هذا هو موسم البيع الحقيقي (خاصة إذا تزامن مع موسم بيع القطن) . وكانت أم يوسف، أو الحاجة (والدتي)، ترسل الطعام لنا ولعمال المحل، أو نقوم نحن بإعداده في السوق (كانت ورقة اللحمة من أكثر الأصناف شيوعًا، وهي عبارة عن ورقة سميكة، توضع داخلها كمية من اللحم والخضار والبطاطس ويتم تتبيلها بإضافة بعض الملح والفلفل والكرفس ثم توضع في الفرن بعض الوقت ليتم طهوها) .

وكانت هناك أشكال من الاحتفال برمضان تضرب بجذورها في عصور سابقة، تسبق العصر الحديث . كان هناك محمد الأعور بائع الجرائد طوال العام، والمسحراتي في رمضان الذي كان يغني أغاني شعبية دينية . حكى لي مرة قصة الجمل الذي هرب من الجزار، وفر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة . وطلب منه الأمان، فمنحه إياه . ومن ساعتها أصبح الجمل إحدى الصور الراسخة في وجداني، كنت أرى وجهه الخائف وهو مختف وراء الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أرى وجهه المطمئن بعد أن حصل على الأمان (أصبح هذا الجمل هو الجمل ظريف، البطل الأساسي لقصص الأطفال التي أكتبها) . وفي عشرة الأيام الأخيرة من رمضان كان محمد الأعور يغني عن الوداع : لم يبق إلا الوداع - لم يبق إلا الجميل . كنت طفلاً صغيرًا فكانت أمي توقظني قبل السحور لأنظر من النافذة فأراه واقفًا وبجواره مساعده يُمسك بالفانوس ويقرأ من كتاب يحوي أسماء نا التي كان يذكرها اسمًا اسمًا . أسمع اسمي ثم أعود إلى فراشي لأنام وأحلم .

كنا في طفولتنا نحمل الفوانيس ونمر على المنازل نطلب ما يسمَّى «العادة»، وهي منحة من أصحاب المنازل يعطونها للأطفال الذين «يغفِّرون» لهم، أي ينشدون لهم أنشودة قصيرة كلماتها كانت على النحو التالي : «لولا فلان ما جينا/ يلا الغفار [يشكل هذا عجز كل الأبيات، ومن هنا تسمية الأغنية] ولا تعبنا رجلينا / إدونا ما تدونا / إدونا ميتين وريال/ نسافروا بيهم بر الشام» . ثم نتوقف عن الغناء ونقول بسرعة : «هاتوا العادة/ لبه وزيادة/ والفانوس طفا / والعيال ناموا / الله يخليهم / هما وأهاليهم» . وقد أخبرني أحد

www.scantopdf.eu

أصدقائي من أهل القاهرة أن أبناء الفقراء وحدهم هم الذين يجمعون «العادة» في القاهرة، ولكني أذكر في دمنهور أن هذا التقليد لم يكن له مضمون طبقي إذ كنا نخرج كلنا بالفوانيس. وطبعًا كانت هناك أغنية «وحوي يا وحوي» الشهيرة التي لا تزال أصداؤها تتردد في بعض الأغاني الرمضانية. وحينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩ علَّمت ابنتي نور بعض هذه الأغاني، وكنا نمر على أعضاء الأسرة «لنغفِّر» لهم، في محاولة يائسة للحفاظ على التراث.

وكان هناك أيضًا موكب الرؤية، وهو موكب كان الحرفيون يقومون به في يوم الرؤية، أي اليوم الذي يسبق رمضان (بعد أن تثبت رؤية الهلال). كانت كل حرفة تجهز عربة خاصة بها تسير في شوارع دمنهور تحمل على ظهرها بعض أفرادها يقومون بتمثيل حرفتهم. فكانت تظهر عربة الحدادين ثم عربة النجارين، وكنا ننتظر يوم الرؤية بفارغ الصبر.

أما في العيد، فكنا نلبس الملابس الجديدة، ونسقط الحدود مؤقتًا من المجتمع كله. وكان الصراع الطبقي يخف إلى حدٍّ كبير، إذ كان يعم جو من المساواة الجميلة. فكانت عبارة «كل سنة وأنت طيب» هي العبارة التي يجدد الناس من خلالها علاقتهم بمفهوم «الإنسانية المشتركة» وبالعناصر الكونية في وجودهم. وكان جيراننا الأقباط يأتون لتهنئتنا بالعيد، تمامًا مثلما كنا نفعل في أعيادهم.

الأناشيد والألعاب

كنا في دمنهور نتعلم عشرات الأغاني والألعاب والفوازير. فكان هناك، على سبيل المثال، العبارات التي لا معنى لها، والتي تتشابه مفرداتها، ومع هذا يُمرِّن الطفل أو الصبي على ترديدها فتزداد كفاءته على نطق مخارج الحروف (تُسمَّى بالإنجليزية: تونج تويستر tongue twister). وكانت المسابقة تدور حول مقدرة اللاعب على أن يقول مثل هذه العبارات بسرعة، وعدد المرات التي يفعل فيها ذلك. ومن أشهر هذه العبارات: «خشبة مين / خشبة حبشة / حبشة مين / صاحب الخشبة»، وعبارة «بربرينا بنى منبر / بربري البندر بنى منبر / يعرف بربري البندر يبني منبر / زي ما بربرينا بنى منبر». ولا يتوقف اللاعب إلا بعد أن تختلط مقاطع الحروف المتشابهة، وكان اللاعبون المهرة يستمرون إلى ما لا نهاية.

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

وكنا أيضًا نردد ما يشبه القصائد الزجلية التي لا معنى لها والتي كانت تهدف هي الأخرى إلى تنمية قدرات الصبية العقلية والتخيلية ، مثل قصيدة : «كان فيه تلات رجاله/ اتنين عمي وواحد مابيشوفش/ لقوا تلاته تعريفه/ اتنين ممسوحين وواحد مابيروحش/ اشتروا بيهم تلات فرخات/ اتنين ماتوا وواحدة ماعاشتش/ حطوهم في الفرن/ اتنين اتحرقوا وواحدة ماطلعتش» وهكذا . ومن الأغاني الأخرى التي تأخذ شكل لعبة . إذ يقول أحد الأطفال : «عمك شنطح/ جالك ينطح/ تديله إيه» . فيختار أحد الأطفال أي كلمة مثل «أديله كرسي» . فيقول الطفل الأول : «كر كر فيك/ وفي كلاويك/ عمك شنطح/ جالك ينطح/ تديله إيه» . فيقول الطفل الثاني : أديله ترابيزة» . وهنا يقفز المغني الأول على هذه الكلمة وبدلاً من أن يقول : «رز رز فيك» ، يقول : «تر تر فيك» . فيضحك كل الأطفال ، وتظهر مهارة اللاعب الأول في تحوير الكلمات ، وتظهر مهارة الثاني في اختيار كلمات يصعب تحويرها .

وكان هناك النشيد المشهور لاختيار فرد ما من بين مجموعة من الصبية : «حادي بادي/ كرنب زبادي/ سيدي محمد البغدادي/ شاله وحطه/ كله على دي» . ونشيد آخر يقول : «بين بين/ زا تو بين/ كب الفل ع الياسمين/ يا كتكوت روح السوق/ جيب البيضة من الصندوق/ أوعى تاكلها ألا تموت» . وكانت هناك الأناشيد التي تبين تداخل الأشياء واستحالتها : «البواب عايز نجار/ والنجار عايز سلم/ والسلم عايز مسمار/ والمسمار عند الحداد/ والحداد عايز بيضة/ والبيضة في بطن الفرخة» . وكان هناك نشيد جميل ننشده عن عودة الأب للمنزل : «بابا جاي إمتى؟/ جاي الساعة ستة/ راكب ولا ماشي؟/ راكب بسكلتة/ بيضة واللا حمرة ؟/ بيضة زي القشطة/ وسعوا له السكة/ واضربوا له سلام/ والعسكري ورا/ والظابط قدام» . ونشيد آخر نقوله في المدرسة ، خاصةً عند بداية العام الدراسي : «يا مدارس يا مدارس/ ياما كلنا ملبس خالص/ والملبس في الكباية/ والتلامذة تجري ورايا» .

وكانت هناك أناشيد خاصة «بتنطيق» الكرة (أي ضربها باليد إلى الأرض فترتطم بها وتعود ليضربها اللاعب مرة أخرى) . وسأورد النشيد التالي حتى لا يختفي مثل آلاف الأناشيد الأخرى التي طواها النسيان لأنه لم يسجلها أحد : «أبليه أبلنجي/ ياجلوس ، عيش أفرنجي/ بالفلوس ، بنت الأفندي/ باتت عندي/ خفت منها لتضربني/ جبت عليها واحد» . وكان هناك نشيد ثان للعبة نفسها سأورده هو الآخر حتى يسجله من يهتم بمثل

www.scantopdf.eu

هذه الأمور: «خدي من إيدي/ يا مراة سيدي/ إيدي وجعتني/ الشمس كلتني/ خدي من إيدي يا زميلتي». ومع البيت الأخير من الأغنية كانت الكرة تنتقل من لاعب لآخر.

وكانت هناك أغان عديدة لنط الحبل أذكر إحداها لأنها حزينة وغريبة: «حار عليك يا بريتانيا / لما تحبي المصريين/ هما كانوا في ألمانيا/ ولا كانوا عدوين/ في شارع فاروق الأول/ العساكر مرصوصين/ ديك واقف ع اللومان/ عمَّال يقرا فرنساوي/ آن/ دي/ تروا/ سورتي un, deux, trois, sortez» وكنا نط الحبل مع إيقاع الأغنية ونخرج مع نهايتها. ولا أعرف أصل هذه الأغنية ومن ألفها، ولمَ تنتهي بالفرنسية، وكيف وصلت دمنهور! ومع هذا يجب أن أذكر بعض الأغاني الفرنسية التي كان يغنيها أبناء البورجوازية الريفية وأبناء الموظفين مثل «فريرو چاكو» و«سير لي بونت دا أڤنيون» والتي وصلت دمنهور ولا شك من خلال مدارس الإرساليات، مما يدل على أن عمليات التغريب كانت قد بدأت تزحف إلى كل مكان، والتي انتهت بالعولمة، أي انتشار النمط الأمريكي في الاستهلاك والحلم والتفكير.

وكانت هناك لعبة «برلا برلا برلليلا» (لا أعرف مصدر هذه الكلمات) حيث يقسم اللاعبون أنفسهم إلى فريقين. ويبدأ الفريق الأول بالتقدم صفًا واحدًا نحو الفريق الثاني إلى أن يصل قبالته ويردد بيتًا من الأنشودة، ثم يعود بظهره مرددًا «برلا برلا برلليلا». وحينما يصل إلى أرضه («بيته» كما كان يسمَّى) يتقدم الفريق الثاني نحوه بنفس الطريقة، أي صفًا واحدًا مرددًا بيتًا آخر من نفس الأنشودة، ثم يعود بظهره إلى أرضه مرددًا: «برلاً برلاً برلليلا». وكانت اللعبة حوارية فكان الفريق الأول يتقدم ويقول: «المرسال جايلكم» ثم يعود بظهره مرددًا: «برلا برلا برلليلا»، فيتقدم الفريق الثاني قائلاً: «عايزين مين». ويتراجع مرددًا: «برلا برلا برلليلا». عايزين فلان». «تجيبلوا إيه». «نجيبلوا عسل» (مثلاً). «ما يقضيهاش»، وحين يقول الفريق الأول: «كل الدنيا ليه»، يرد الفريق الثاني: «اتفضلوا خدوه»، فيزيد أعضاء الفريق الأول فردًا، والفريق الغالب هو الذي يزيد عدد أفراده عن الفريق الآخر وهكذا. ولا أتذكر كيف كانت اللعبة تنتهي، وهل كان هناك غالب أو مغلوب، أم أنها كانت مجرد حوار غنائي. وكانت هناك عشرات الألعاب الأخرى مثل «برتوس» و«كلوا بامية» وفى رواية أخرى «كيلوبامية» و«البوكس»، وهذه اللعبة تسمَّى أيضًا «الحجلة». والغريب في كل الأناشيد والألعاب السابقة أنها كانت أساسًا للبنات، ومع هذا، كان يشارك فيها الصبيان حتى سن الحادية عشرة، حتى يتم

www.scantopdf.eu

الفصل بينهم. وكان الصبيان ينفردون بلعب بعض الألعاب مثل كرة القدم والسبع طوبات (توضع سبع بلاطات، الواحدة فوق الأخرى، ويُقسَّم المشاركون إلى فريقين. ويمسك ممثل الفريق الأول بالكرة، ويقذف بها، ويحاول أن يوقع أقل عدد ممكن من الطوب، لأن على فريقه أن يعيد ترتيب البلاطات الواحدة فوق الأخرى، ثم يفر أعضاء هذا الفريق لأن من تلمسه الكرة عليه مغادرة الملعب. وموضع التنافس بين الفريقين هو: هل ينجح الفريق الأول في إعادة ترتيب البلاطات قبل أن تصيب الكرة كل أعضائه أو لا؟). ومع هذا، إن لم تخني الذاكرة، كانت البنات يلعبن لعبة السبع طوبات بمفردهن.

وطبعًا كان تراث الأغاني والألعاب للأطفال ثريًا إلى أقصى حد. فكان الكبير يضع الصغير على حجْره ثم يمسك بأصابعه إصبعًا إصبعًا، قائلاً: «آدي البيضة، آدي إللي سلقها، آدي إللي قشَّرها، آدي إللي أكلها». وعند الإصبع الخامسة يكون الطفل متحفزًا إذ يقول الكبير: «وآدي إللي قال إديني حتة» ثم يبدأ في زغزغة الطفل. وهناك أغنية أخرى تُغنى أثناء أرجحة الطفل وهو يجلس على حجر المغني: «حج حجيجة بيت الله/ والكعبة ورسول الله/ حلفت أمك يا ولد/ لتغديك اليوم لبن/ هشك هشك هشوكة/ ياللي تحب المفروكة».

وغني عن القول أن كل هذه الألعاب يمكن القيام بها بدون حاجة لشراء أي لعبة أو أداة. فاللعبة كانت تعتمد على اللاعبين ومهاراتهم وحسب، ولذا فهي كانت تضيِّق الهوة الاجتماعية بين اللاعبين. كما أنها كلها ألعاب جماعية لا يمكن لفرد أن يلعبها بمفرده (على عكس الألعاب الحديثة الغالية الثمن التي يمكن أن يلعب بها المرء بمفرده، إلى أن نصل إلى «القمة» وهو الكمبيوتر الذي يمكن أن نلعب معه شطرنج بمفردنا!).

وحينما كنا نتقدم قليلاً في السن ونترك مرحلة الطفولة، كنا نلعب ألعابًا مثل السيجة والشطرنج والطاولة والكوتشينة، وبالطبع كرة القدم (الكرة الشراب، كما كانت تسمى، التي تحولت تدريجيًا إلى الفوتبول أو الكرة «المنفوخة»، وهي الكرة التي تستخدم الآن في لعب كرة القدم). كما شاهدت في بداية طفولتي صندوق الدنيا، إذ كان رجل يأتي وهو يحمل صندوقًا به أربع فتحات عليها عدسات ووراءها شريط ورق عليه صور أبو زيد الهلالي وعنتر وعبلة، وكنا نجلس على أريكة خشبية يحملها الرجل ونضع وجوهنا على العدسات ثم يبدأ الرجل في لف الشريط ويحكي بعض الحكايات.

www.scantopdf.eu

وكان هناك ما يُسمَّى بالآفية (القافية) . وتبدأ بجملة إخبارية أو كلمة أو سؤال يطرحه المتنافس (أ) فيرد عليه المتنافس (ب) بكلمة «إشمعنى»، فيرد عليه (أ) بتعليق من مجال يتم اختياره مسبقًا ، على أن يكون التعليق كوميديّا لاذعًا . ثم تُعكس الآية فيقول (ب) جملة إخبارية ويقول (أ) إشمعنى . وتستمر المنافسة إلى أن ينفد وقود أحد المتنافسين . فمثلاً يمكن أن تكون المنافسة داخل آفية الأفلام على النحو التالي :

(أ) تمشي في الشارع أنت وعيلتك فالناس تقول :

(ب) إشمعنى .

(أ) طيور الظلام .

ثم تُعكس الآية على النحو التالي :

(ب) والدتك تمشي في الشارع الناس تقول عليها :

(أ) إشمعنى .

(ب) جودزيلا .

ثم تُعكس الآية مرةً أخرى :

(أ) والدك يمشي في الشارع تقول عليه الناس :

(ب) إشمعنى .

(أ) سارق الفرح .

(الأمثلة الثلاثة السابقة مجرد أمثلة ، ولذا فأسماء الأفلام المستخدمة حديثة) . ومع هذا مازلت أذكر آفية واحدة عن اسم فيلم «مشهور» لتحية كاريوكا (على ما أذكر) ، وكانت الآفية كما يلي :

(أ) أمك تضرب أبوك فيقول :

(ب) إشمعنى .

(أ) الصبر طيب !

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

ويمكن أن تكون الآفية عن كعك العيد . على النحو التالي :

(أ) كعككم :

(ب) إشمعنى .

(أ) يخبطوه يرد في الحيط .

(ب) كعككم :

(أ) إشمعنى .

(ب) يقدموه للضيف يقول بلاش النوبادي .

(أ) كعككم :

(ب) إشمعنى .

(أ) أمك تبعتوا للجيران يصوتوا .

وكانت اللعبة تتطلب الحفظ وسرعة البديهة ، وهما من سمات المجتمع التقليدي الشفاهي . ولكنني كنت أذهب للمنزل وأعد قوائم بالأفيات المختلفة الخاصة بمجالات مختلفة ، ولذا زادت مقدرتي على منازلة الخصوم بشكل مذهل . ولذا حينما كان فريق من حي آخر يأتي لينازلنا ، كان دائمًا يقع عليَّ الاختيار ، فالقوائم الكتابية كانت جاهزة في ذهني في مجتمع شفوي لا يعرف مثل هذه القوائم ، وكان جهابذة الآفية يحارون في أمري إذ شعروا بأن هناك شيئًا جديدًا مختلفًا عما ألفوه . ولم يكتشف أحد أمري بطبيعة الحال . ولا تزال بقايا هذه الألعاب والأغاني موجودة في بعض أحياء القاهرة الفقيرة ، وفي بعض الأماكن في دمنهور . وأعتقد - والله أعلم - أنها في طريقها للاختفاء مع ظهور الأتاري واللعب الكهربائية المختلفة .

وقد ظل حب النكتة داخلي لا يبرحني ، وقد أخبرت أصدقائي أنني إذا أطلقت النكات على أحدهم ، فعذري أنني كمصري أحب القفشة السريعة ، فحينما تحكم «الآفية» فلا يمكن مقاومة ذلك . وولائي ينصرف إلى النكتة بشكل يكاد يكون مبدئيًا ، يجبُّ كثيراً من الولاءات الأخرى ، لبعض الوقت . وأعتقد أن حب النكتة مسألة مرتبطة بصميم الإنسان المصري ، فقلبه ينفتح إن اكتشف أن مَنْ أمامه قادر على إطلاق

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

النكت. قررت الحكومة مرة أن تحول المرور من أمام منزلنا مساءً لإجراء بعض الإصلاحات، فأقامت بعض الحواجز، مما كان يضطرنا إلى الدخول في شوارع جانبية لنصل إليه. فكنت ألجأ إلى سلاح النكتة لإقناع الحارس المسائي بأن يفتح لي الحاجز كي أمر منه. فكنت مرة أقول للحارس بصوت خطابي: «نحن الشعب المصري، نريد العبور»، فيضحك ويزيل الحاجز. أو أسأله «هل أنت ضد العبور؟ كل ما نريده هو العبور» فيزال الحاجز مرةً أخرى. وبدأت الحيل الفكاهية تتناقص. ومرة كنا عائدين من المسرح أنا وأولادي، وأصبحت المسألة بالنسبة لهم مصدر متعة بالغة. وفي ذلك اليوم، جلسوا في المقعد الخلفي للسيارة، وقالوا إنهم يريدون حيلة فكاهية جديدة. فقدحت زناد فكري، ووقف بسيارتي عند الحاجز وقلت بأعلى صوتي: «افتح يا سمسم». فنظر الحارس بمنتهى الجدية، ثم أزال الحاجز وقال: «ادخل يا سمسم»، ثم انفجرنا ضاحكين.

ولعل حب المصري للنكتة يعود إلى تجربته التاريخية الطويلة التي جعلته يعيش كثيراً من التناقضات ولحظات الانتصار والانكسار ويشعر بالقوة والعجز، الأمر الذي جعله قادراً على تطوير رؤية فلسفية قادرة على تقبل التناقضات وتجاوزها من خلال النكتة، وإن كان هذا لا ينفي أيضًا مقدرته على التجاوز من خلال الثورة.

ولا شك في أننا كنا نتعلم الكثير في دمنهور دون أن ندرك طبيعة ما نتعلمه، وهذه هي إحدى القضايا الأساسية المطروحة الآن في عالم التربية؛ حينما يتم محو الأمية وتحديث المجتمع: ما مقدار الثقافة والأشكال الحضارية التقليدية الشفوية التي ستختفي؟ هل تكون الخسارة فادحة لا تُعوض، أو أن الثمن سيكون معقولاً؟ يرى البعض أن الثمن في الواقع سيكون فادحًا لأن المواد التي سيقرؤها من تعلموا القراءة والكتابة لن تكون بالضرورة الأعمال الكاملة لإسخيلوس أو الفارابي أو كونفوشيوس. فعدد مجلات الحوادث والجرائم وأخبار النجوم اللامعة لا يُحصى، ومعدل توزيعها يفوق معدل أي جريدة محترمة أو شبه محترمة. هل ثمة طريقة يمكن من خلالها محو الأمية بطريقة لا تؤدي بالضرورة إلى حرمان الجماهير من قدر كبير من الثقافة التقليدية الشفوية التي تتناقلها وتتعلمها دون جهد كبير، لأنه جزء من خطابها الحضاري وحياتها اليومية؟

www.scantopdf.eu

التنوع والتسامح

من مظاهر الصراع بين الحداثة والتقاليد ظهور الأسرة النووية مع استمرار الأسرة الممتدة . كانت الأسرة النووية قد بدأت تطل برأسها في دمنهور ، فكان هناك الموظفون ، الذين كان عددهم قد بدأ في التزايد . وكان لكل موظف أسرة مكونة من زوجين وأطفال ، ولا نعرف شيئًا عن أصولهم ، ومع هذا تقبّلهم مجتمع دمنهور . بل كانت بعض الأسر العريقة لا تمانع في أن تصاهرهم . وكان بعض أبناء الأسر العريقة ينفصلون عن ذويهم ليستقروا في الإسكندرية (حيث كانت هناك فرص أكبر للاستثمار والتمتع) . ومع هذا ظلت الأسرة الممتدة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية . (كان والدي - رحمه الله - يخبرنا أننا لا علاقة لنا بثروته زادت أو نقصت ، فقد قرر أن يجعلنا نعيش في مستوى أبناء الموظفين ، ولعل هذه هي طريقته في «تحديث» علاقته بنا ، وفي ترشيد الإنفاق ، وفي الالتزام بالتراكم الرأسمالي) .

كان جدي الحاج أحمد علي المسيري ، صاحب الضحكة المجلجلة والهيئة المهيبة ، يعيش في الدور الأرضي في عمارته الكائنة في شارع الأنصاري ، ويعيش بقية أبنائه الأربعة في شقق مختلفة في العمارة نفسها ، أما ابنتاه فقد انتقلتا إلى بيتي زوجيهما ، أي أنني نشأت في بيت كل من فيه «مسيري» إلا زوجات الإخوة الأربعة . في هذا الجو كانت أمي تتميَّز عن «سلفاتها» (زوجات أعمامي) بأنها كانت أقلهن حداثة ورغبة في الإنجاز في رقعة الحياة العامة . كانت أمًّا لأولادها ولأولاد عمي ولكل من يأتي في طريقها ، بل للخادمات (اللائي كانت تجلس معهن أحيانًا على الأرض وتأكل بعض الوجبات معهن في المطبخ . وعلى كلٍّ كانت الخادمة التي تُلحق بمنزلنا لا تتركه إلا عروسة ، فهي بمعنى من المعاني ابنة لها) . وكل هذا كان يثير حفيظتي أحيانًا ، فذاتي الحديثة ، ذات الحدود الواضحة ، كانت قد بدأت تتحدد وتتبلور .

والإطار الذي تحركت فيه في طفولتي هو الأسرة الممتدة ، بكل ما في الكلمة من معانٍ . ففي الجيرة التي نشأت فيها كان كل الأطفال معروفين للجميع ، ولذا كان الوقت الذي أقضيه في الشارع ليس مجرد «صياعة» ، وإنما وقت للتنشئة الاجتماعية ، على عكس الشارع هذه الأيام . كما كان الصبية الكبار يراقبون الصغار وكأنهم أولياء أمورهم ، مما كان يخفف العبء كثيراً على الوالدين . تخبرني أمي أنني ضللت طريقي مرة وأنا في

www.scantopdf.eu

الرابعة ، والتقطتني إحدى الأسر وقدموا لي الأكل . ولكني رفضت أن آكل إلا بعد أن يرتدوا جميعهم فوطًا على صدورهم لحماية ملابسهم من الأكل المتساقط ، ففعلوا ذلك إرضاءً لخاطري ، أي أنهم عدُّوا أنفسهم مثل أسرتي ، مسئولين عني . (أذكر أنني كنت أسير في إستنبول عام ١٩٧٧ ، وكان هناك طفلٌ في العاشرة يدخن سيجارة فزجره أحد المارة ، أي أنه لعب دور الأب برغم أنه كان لا يعرف الطفل ، ولكنه الإحساس بالمسئولية الاجتماعية في المجتمع التقليدي . وهذا أمر يستحيل أن يحدث في المجتمعات الغربية الحديثة ، وفي كثير من المجتمعات العربية الحديثة ، خاصةً في المدن الكبيرة ، فهي مجتمعات مكونة من أفراد ، يعرف كل منهم حدود مسئوليته ، لا يمكنه تجاوزها . فالدولة قد ملأت الحياة العامة وجزءًا كبيرًا من الحياة الخاصة) .

أتذكر أن أمي ، هذه الأم الفاضلة الشاملة ، ظلت محتفظة بولائها الكامل لأسرتها ، آل حلبي ، وظلت تؤكد لنفسها وللجميع بإصرار شديد أنها ليست مسيرية ، دخلت بيت المسيري تعيش فيه تؤدي واجبها ، ولكنها ليست منه . ويبدو أن تجربتها في وسط المسايرة كانت تجربة فريدة ، إذ تحول آل المسيري في وجدانها إلى عالم أسطوري عظيم مخيف . كانت تحكي لي عن أجدادي الذين عاصرت بعضهم قبل مجيئي إلى هذا العالم ، وكيف أن هيبة أحدهم (جدي المباشر الحاج أحمد) كانت تبث الرهبة في قلب الجميع . وكانت ضحكته تُدخل البهجة على القلوب ، ولذا حينما كان يضحك في مكتب المدير ، كان المدير هو الآخر يقهقه ضاحكًا وكذلك كل من حوله . أما جدي الحاج علي ، فكان - حسب روايتها - لا يحب أن يأكل الكبد نيئة ، وفي رواية أخرى بعد أن يطشه في الزيت الساخن لمدة ثانية واحدة . أما البيض فكان يشرب بيضتين نيئتين كل يوم . وكانت زوجته (المسيرية) أكثر بطشًا منه ، فكانت قادرة على أن تحمل برميلاً زنته لا تقل عن مائة كيلو جرام وتسير به لعدة كيلو مترات (وما الذي كان يحملها على هذا ؟! هل هذه وقائع مادية ، أو أنها الأسطورة التي ينتجها عقل الإنسان الخلاق ليتفهم واقعه وليتصالح معه؟!) . وأخبرتني أمي عن أحد أجدادي ، وأنه كان تاجرًا ينتقل بين المدن والقرى . كان يتزوج في كل مدينة ، ربما ليؤنس وحدته . ولم يعرفوا بأمر زيجاته إلا بعد وفاته ، إذ حضرت الزوجات ليطالبن بأنصابهن في الميراث ، وكان بينهن زوجة من جنوبي السودان لا تعرف العربية (كيف كان هذا الرجل يتفاهم معها ؟!) .

وبرغم أن أمي ظلت «غريبة» عن بيت المسيري ، فإن انتماءها للأسرة الممتدة كان

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

يعطيها قوة وثقة. حينما كانت تغضب من أبي كان أخوها الأستاذ إبراهيم حلبي، رئيس حزب الوفد في دمنهور (أو لعله كان من الشخصيات الأساسية فيه) بما له من هيبة في المجتمع، يأتي وتدور المفاوضات إلى أن يُعرف أصل الخلاف وتسوى القضية. وإن لم تسوَّ، فهناك دائمًا بيت أبيها أو أخوتها تلجأ إليه تعيش فيه بعض الوقت، إلى أن تبدأ المفاوضات مرة أخرى. وإذا كانت الخلافات تسوى من خلال الأقارب، فإن الزيجات في معظمها كانت تتم بنفس الطريقة، فالفرد لم يكن يتزوج بفرد آخر (كما هو الحال في مجتمعنا الحديث)، وإنما كانت العائلة «تصاهر» العائلة الأخرى. فالفرد في المجتمعات التقليدية ليس وحيدًا، لا في أفراحه ولا في أحزانه. أذكر أنني حينما ظهرت في التليفزيون لأول مرة للحديث عن **موسوعة ١٩٧٥** تقدم كثيرون بالتهنئة لأمي، بحُسبانها مسئولة عن «النجاح» الذي حققته، فثمرة الجهد لا تنسب إلى صاحبها وحسب، وإنما تنسب أيضًا إلى الأم، الأمر الذي يولِّد لديها إحساسًا بالاستمرار ويخفف كثيرًا من عبء الأمومة، ويُقرِّب الأجيال بعضها من بعض. كما يجعل مسألة عمل المرأة في المنزل مسألة مُعترفًا بها اجتماعيًا، يقدرها المجتمع حق التقدير (على عكس ما هو حادث الآن: فلو سألت أمًّا ماذا تعمل، لقالت: «لا شيء»، بحُسبان أن «العمل» أصبح هو ما يقوم به المرء من عمل في مجال الحياة العامة ويتقاضى عنه أجرًا، وكلا هذين الشرطين لا ينطبق على الأمومة!).

ومن المقولات الشائعة التي تكاد تكون بدهية أن المجتمع التقليدي يمحو الشخصية الفردية للمرء. ومما لا شك فيه أن عملية الضبط الاجتماعي المباشرة في المجتمع التقليدي تضع حدودًا للفردية، وتولد إحساسًا عميقًا بالانتماء للجماعة الأولية (الأسرة-القبيلة... إلخ). أذكر أنني كنت في ولاية مينسوتا عام ١٩٦٦ لإلقاء محاضرة ضمن نشاط منظمة الطلبة العرب. وبعد المحاضرة، اقترب مني أحد الطلبة وعانقني وقبَّلني، واكتشفت أنه أحد زملائي من مدرسة دمنهور الثانوية من عائلة اللبودي، ودعاني لحضور اجتماع «لاتحاد طلبة دمنهور في ولاية منيسوتا»، فكدت أُصعق من هول الصدمة! ومع هذا حضرت الاجتماع، وأدركت مدى قوة الانتماء للعائلة أو القبيلة أو المكان في المجتمع التقليدي.

ولكن برغم كل هذا، فإن هناك عدداً كبيراً من الشخصيات ذات السمات الفذة في حياتي في مجتمع دمنهور التقليدي. ففي إطار أسرتي الممتدة، لم يكن أبي هو الشخصية

www.scantopdf.eu

الوحيدة الطاغية ، كما هو الحال في الأسرة النووية ، إذ كان هناك نماذج أخرى يمكنني أن أحذو حذوها ، ومن خلالها تمكنت من أن أجاوز والدي وأن أتحرر منه (وهذه هي مشكلة المشكلات بالنسبة للأطفال في الأسرة النووية) . فزوج أختي الأستاذ عبد الوهاب مصطفى حلمي ، أستاذ اللغة العربية ، شجعني منذ طفولتي على الاهتمام بالأدب والفكر ، وكان يساعدني على إصدار المجلة السنوية لمدرسة دمنهور الثانوية . وكان يطلب مني إلقاء المحاضرات العامة («الخُطب» كما كانت تُسمَّى حينذاك) ، ويفتح لي آفاقًا جديدة مختلفة عن أفق أسرة ذات توجُّه تجاري واضح .

وكان خالي الأستاذ إبراهيم حلبي - كما أسلفت - شخصية سياسية بارزة في دمنهور . كانت الجماهير قد اختارته مرشحًا لها في آخر انتخابات نيابية أجريت قبل قيام ثورة سنة ١٩٥٢ . ولكن قيادة الوفد اختارت أحد أبناء عائلة الوكيل الإقطاعية مرشحًا عن دائرة دمنهور بدلاً منه (بعد أن انتدب الطويل باشا للتحكيم) ، فجرى الهمس ساعتها بأن الوفد قد سقط تمامًا كحزب شعبي . كان خالي قد كرَّس حياته للعمل الحزبي ، إذ كان إيمانه بالوفد كاملاً . فكان يُوظف مطبعته (وهي من أقدم المطابع في مصر) لطباعة منشورات الوفد . وحينما قامت ثورة يوليو ، تحمست لها بعد أن كنت قد سمعت عن فساد الملك والصراعات الحزبية ، فذهبت إليه ورجوته أن يؤدي دوراً في هذه التشكيلة السياسية الجديدة ومنظمتها (هيئة التحرير) ، فكان رده صارمًا : «السياسة بالنسبة لي هي إدلاء الأصوات خلف ستارة ، وبدون ستارة لا يمكن أن تقوم للحياة السياسية الحقة قائمة» . أُعجبت ببطولته وحزمه برغم أنني لم أفهم ساعتها تمامًا ما قاله . وترك خالي السياسة وتفرغ لعمله ولمطبعته حتى حانت منيته ، وكنت ساعتها في الولايات المتحدة ، وسمعت أن دمنهور بأسرها خرجت لتوديعه .

وكان لي خال آخر يمثل نمطًا مغايراً تمامًا . لم يكن له أي توجُّه سياسي على الإطلاق ، وكان مشغولاً بأمور لا علاقة لها بالواقع الاجتماعي المباشر ، كأن يطبع «إمساكية» جميلة في شهر رمضان . آخر مرة قابلته فيها أعطاني جدولاً بتواريخ النوَّات في الإسكندرية وأسمائها . وظل يواظب على حضور كل الجنازات والأفراح ، إلى أن توفاه الله ، وهو فوق الثمانين .

ومن معالم دمنهور الأساسية مقهى المسيري لصاحبها الأستاذ عبد المعطي المسيري

www.scantopdf.eu

(رحمه الله) . ترددت عليها مرة أو مرتين قبل دخول الجامعة ، وجلست على هامش جماعة الشعراء والفنانين والقصاصين والمفكرين والمثقفين ومحبي الثقافة . وبعد دخولي الجامعة ، أصبحت عضواً أساسيّا في تلك الجماعة التي كانت تلتقي في المقهى ، في جو كله مودة ودون استقطابات أيديولوجية ودون خوف أو وجل من التجريب أو الخطأ ؛ فالمرء أمام أصدقائه لا يدّعي ولا يضطر إلى موازنة الأمور ، بل يعبِّر عما بداخله في جرأة ، وهو يعرف أن ما سيقوله سيُقابل إما بالإعجاب و إما بالضحك والسخرية ، وسخرية الأصدقاء مفعمة بالحب (على عكس المؤتمرات العامة ، التي أصبحت فضاءات زمنية ومساحات مكانية تُلقى فيها أوراق طويلة تُسمَّى «بحوثًا» أُعدت بعناية مسبقًا ، تُوثّق فيها أحيانًا البدهيات ، أو يظل الباحث يوازن نفسه حتى لا يقول شيئًا ! وهو يبذل قصارى جهده ألا يجرب وألا يخطئ وألا يترك ثغرة في بحثه قد يُحاسب عليها . وهو عادةً ما يلقي بحثه أمام جمهرة من الأساتذة لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وفي إطار جو من التربص العام!) .

إن أي مؤلف لا يكتب «للناس جميعًا» وإنما لمجموعة محددة من البشر . وكل كاتب - في تصوري - يحتاج إلى جماعة من القراء تتوافر فيهم عدة شروط : أن يكونوا مهتمين بالقضية التي يتناولها ، وأن يكونوا على مستوى فكري يمكنهم من الحكم على أعماله فلا يكيلوا المدح دون حساب أو مقياس ، وألا يكونوا من الحاسدين الحاقدين . مثل هؤلاء يمكنهم توجيه النقد للمؤلف داخل إطار من الصداقة والتقبل المبدئي ، ويعطيه قدراً من الشرعية ، فهذا يشد من أزره ، والحوار الدافئ الذكي يولِّد في نفسه الثقة فيزداد الإبداع .

ومن أطرف الأشياء أنني حينما كنت طالبًا في المدرسة الثانوية كنت كلما أرسلت خطابًا لإحدى الصحف ، لأعبِّر عن إعجابي بشيء ما أو لأستنكر شيئًا ما ، أفاجأ بأن خطابي يجد طريقه إلى النشر ، بل ويُعطى مكان الصدارة أحيانًا . وكنت أحار لهذه الظاهرة ، وكان زملائي في المدرسة يفسرونها بأن أسلوبي أدبي راق ، فكنت أصدقهم وترتفع معنوياتي وتزداد ثقتي بنفسي . إلى أن اكتشفت أن المسألة مجرد تشابه أسماء ، وأن كثيراً من محرري الصحف كانوا يظنون أن عبد الوهاب المسيري من دمنهور هو عبد المعطي المسيري الأديب صاحب المقهى في نفس المدينة !

وكان بيننا شاعر العامية حامد الأطمس والشاعر فتحي سعيد (رحمهما الله) ، كما

www.scantopdf.eu

تعرفت إلى محمد صدقي كاتب القصة وعبد القادر حميدة وغيرهما . كان المقهى هو بيت الثقافة في دمنهور . وكان أمين يوسف غراب يتردد عليه ، وقيل لي إن يحيى حقي ومحمد عبد الحليم عبد الله وغيرهما من المشاهير من أبناء البحيرة وممن عملوا فيها كانوا من رواد هذا المقهى الأدبي . ولكن بعد قيام ثورة يوليو ، تسارعت عملية التحديث التي تتسم بظهور الدولة المركزية القوية ، فانتقل الأستاذ عبد المعطي المسيري وحامد الأطمس إلى القاهرة ليعملا في المجلس الأعلى للفنون والآداب (ومع هذا ، استمر المقهى ومايزال - حسبما سمعت - منتدى ثقافيًا يتردد عليه المثقفون والفنانون) . وللأسف مات الأستاذ عبد المعطي المسيري يوم موت الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان جهاز الدولة المركزية بأسره مشلولاً عن الحركة ، مشغولاً بهول الحدث ، ولذا اختفى الأستاذ عبد المعطي من الحياة الأدبية والعامة فجأة .

وفي مرحلة مبكرة من حياتي ، ولفترة قصيرة ، انضممت - كما أسلفت - إلى جماعة الإخوان المسلمين ، وتعرفت إلى مجموعة كبيرة من الشخصيات معظمهم من الطبقة المتوسطة والطبقة المتوسطة الصغيرة (موظف بمصلحة التليفونات - مدرس لغة عربية - بعض أولاد صغار المزارعين - صغار التجار) . الطريف في الموضوع أنني اكتشفت حينذاك أن كثيراً من الشيوعيين في دمنهور كانوا أعضاءً في الإخوان المسلمين قبل دخولهم الحزب الشيوعي ، والعكس بالعكس ! وحينما كنت في دمنهور عام ١٩٥٦ في أثناء العدوان الثلاثي وكنا في قوات الحرس الوطني ، سمعت إمام أحد مساجد دمنهور ينشد قصيدة لعبد الوهاب البياتي ، واكتشفت أن هذا الإمام كان ملحداً ! ويبدو أن هذه المرحلة كانت مرحلة بحث عند الجميع ، وأبناء الطبقة المتوسطة المتعلمون في المدن الصغيرة وفي الريف المصري هم من أكثر العناصر بحثًا وتساؤلاً وصلابة . (وأعتقد أنه من أكبر الكوارث التي حاقت بالمجتمع المصري تآكل الطبقة المتوسطة [مع الانفتاح والعولمة] بسبب تضاؤل دخلها والتضخم وزيادة التفاصيل في حياتها : لقمة العيش - تعليم الأولاد - الرعاية الصحية . . . إلخ . وقد أدى هذا إلى أن إسهام أبناء هذه الطبقة في المجتمع قد تراجع بشكل ملحوظ) .

ولعل هذا التنوع الذي يسم المجتمع التقليدي يعود إلى التسامح الذي يتسم به ، فهو مجتمع - كما أسلفنا - تتم فيه عملية الضبط الاجتماعي بشكل مباشر ؛ كل شخص فيه يعرف مكانه وتتم مراقبته بشكل مباشر من خلال أبويه والجيرة وهكذا ، فهو يدين بالولاء

www.scantopdf.eu

أساسًا لعلاقات القرابة والجيرة المباشرة . ولكن بسبب نجاح عملية الضبط الاجتماعي وثقة المجتمع بنفسه ، وبسبب أن الأسرة القريبة من الفرد، أو أن الجيرة هي التي تقوم بعملية الضبط الاجتماعي ؛ نجد أن المجتمعات التقليدية لا تمانع في أن تترك حيزًا لا بأس به للأفراد ليمارسوا فيه أشكالاً من التفرد ، ويمكن داخله التسامح والتساهل في أمور كثيرة . كل هذا يقف على طرف النقيض من مؤسسات الدولة والمؤسسات الإعلامية المختلفة المجردة البعيدة التي تتطلب الولاء لها دون غيرها ، وهي مؤسسات لا شخصية ومجردة ، تحاول تنميط الفرد حسب قوالب مُعدة مسبقًا ، فتقضي على فرديته المتعينة حتى يمكنها توظيفه . أذكر أن إحدى السيدات اشتكت من أن زوجها يقضي معظم وقته في النادي يعاقر الخمر وأن له علاقات نسائية . فاجتمعت بعض النسوة وأخبرنها عن آليات استعادة الزوج إلى المنزل ، ومن ضمنها شراء الخمور له ، إلى أن يعود ، «وساعتها يحلها حلال» . وقد نجحت الخطة أو المخطط ، ولكن ليس هذا هو المهم ، فما يهمني من هذه القصة هو وجود متتالية مسبقة لمثل هذا الرجل ولمثل هذه المشكلة ، كما توجد متتاليات مختلفة للحلول ، مما يعني أن رؤية المجتمع للنفس البشرية كانت رؤية مركبة تتجاوز الصور السطحية والتافهة التي تروج لها أجهزة الإعلام هذه الأيام . وجوهر هذه الرؤية الإعلامية الاختزالية هو الاستقطاب الحاد بين نوعين من البشر ، فالإنسان إما أن يكون محبّا مخلصًا ، متفانيًا في حبه ، لا يفكر إلا في محبوبته (بعد أن أحبها من أول نظرة بطبيعة الحال!)، ولا يشهد منزله، أي عش الزوجية السعيد، سوى شهور عسل متتالية ، وإما أن يكون رجلاً شريرًا يخون زوجته وأفراد أسرته وأصدقاءه، ولا يشهد منزله سوى شهور بصل وخناقات متتالية !!

نفس التسامح هذا يظهر في علاقتنا بالأقباط . ثمة واقعة في بداية حياتي لا أنساها ، إذ أيقظتني أمي ذات صباح وأخبرتني أن وليام قد حضر لرؤيتي . لا أذكر اسمه بالكامل ولا علاقتنا به سوى أنه كان جارًا لنا وصديقًا لأخي الأكبر ، وكان يحبني ويأتيني بالحلوى والهدايا . وفي ذلك اليوم، خرجت من غرفة نومي لأراه جالسًا على الأريكة مبتسمًا وأعطاني لعبة خشبية صغيرة: ديك ملون عُرفه أحمر، قاني الحمرة، لن أنساه ما حييت . (ولعل شخصية الديك حسن ، إحدى الشخصيات الأساسية في قصص الأطفال التي كتبتها، هي خليط من هذا الديك وأخي حسن) .

وكان يجلس إلى جواري في المدرسة ديسقوروس (ابن قسيس الكنيسة ، وقد قيل لي

www.scantopdf.eu

إنه هو نفسه أصبح قسيس كنيسة دمنهور). ولا أذكر أي اصطدام معه، أو بينه وبين المدرسين، بل كانت تربطنا جميعًا علاقة محبة ومودة. وكانت هناك أسرة قبطية تقطن إلى جوارنا، ولم يكن بوسعهم رؤية النجم لتحديد موعد الإفطار بسبب موقع شقتهم، فكان يُطلب مني أن أقف يوميًا إلى حين ظهور النجم ثم أخبرهم بذلك (فبعض الإخوة الأقباط يصوم «من النجمة للنجمة»، كما قالت لي د. إيناس برسوم، طالبتي منذ ربع قرن تقريبًا والتي تعمل مدرسة في آداب عين شمس، والتي لا تزال تربطني بها وأسرتها [زوجها وأولادها] علاقة قوية).

وكان هناك عدد كبير من المدرسين الأقباط في مدرسة دمنهور الابتدائية والثانوية. كانوا يؤدون دورًا حيويًا في حياتنا. كان من أهمهم الأستاذ فارس، مدرس الحساب، الذي علَّم كل الأجيال كيف تحسب. كنت أكرهه وبعمق لأن طرقه التربوية ووسائله التعليمية كانت تتضمن الضرب على الرأس بدرجات متفاوتة من العنف، وهي أمور كان أولياء الأمور يرون أنها من حسناته، فهو ينهي كل المشكلات بضربة واحدة، وتدل نتائجه على فاعلية وسائله التعليمية. وقد تولاني برعايته التربوية في السنتين الأولى والثانية من المرحلة الابتدائية. ثم جاء الأستاذ مشرقي في السنة الثالثة ليُجهز على أي بقايا حب داخلي للرياضة. ولكنهما لم يفلحا في القضاء على إيماني بالجنس البشري. وكان هناك أيضًا الأستاذ روفائيل والأستاذ إميل جورج اللذان تبنياني فكريًا ونفسيًا مما كان له أعمق الأثر فيّ (كما سأبين فيما بعد).

وكنت ألاحظ أصدقاء خالي الأقباط من أعضاء حزب الوفد، وكيف كانوا جميعًا يقفون صفًا واحدًا ضد الإنجليز والملك. باختصار شديد، علاقتنا بإخواننا الأقباط في هذا المجتمع التقليدي كانت علاقة طيبة ومستقرة، فهل هناك من وسيلة لدراسة أسباب هذا الوئام الكامل؟ وكيف يمكننا إعادة إنتاجه في مجتمعنا المصري «الحديث» الذي أصيب بعض أفراده بلوثة في موضوع الدين؟

منذ عدة أعوام أدمنت الاستماع إلى السيرة الهلالية في رمضان. وكنت مرة أستمع إلى السيد الضوي (منشد السيرة الهلالية الشهير) في المجلس البريطاني (مع فريق الورشة). ومن المعروف أن السيرة تبدأ دائمًا بالصلاة على النبي، فهذا جزء من التقاليد الأدبية لا يمكن التخلي عنه. ولكن المنشد لاحظ وجود عدد كبير من الأجانب (ولا شك

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

في أنه كان هناك عدد من الإخوة الأقباط، الذين لا يمكن التعرف عليهم لأنهم لا يختلفون عن المسلمين إلا في الأسماء). فأحس أن عليه أن يطوِّر افتتاحيته بما يتلاءم وهذا الوضع دون أن يُلغيها أو يستأصلها (كما يفعل بعض التحديثيين). فأضاف عبارة «وكل اللي له نبي يصلي عليه». وبذلك أنجز المنشد ما يجده بعضنا صعبًا: الحفاظ على التقاليد والقيم، دينية كانت أم أخلاقية، وتوسيع نطاقها بحيث يمكن لأعضاء الأقليات أن يشعروا أنها لا تستبعدهم، فنحن - كما يعلمنا الإسلام - أمة واحدة.

وحتى لا يتصور أحد أن لديَّ حنينًا رومانسيًا (نوستالجيا) للماضي (برغم إدراكي لكثير من إيجابياته)، يجب أن أشير إلى وعيي بالجانب المظلم لهذا المجتمع التقليدي. فالفردية التقليدية (وهي غير الفردية الحديثة)، وعدم انضباطها، تتضح بشكل درامي، خاصةً حينما تبدأ المؤسسات الحديثة في الظهور، وهي مؤسسات تتطلب من الفرد قدراً من الانضباط العام والمجرد. فالفرد التقليدي يظل على فرديته النابعة من ولاءاته التقليدية لنفسه ولأسرته أو عشيرته (تُعرِّف زوجتي الحداثة بأنها التخلي عن كل العلاقات الأولية [الكونية]، مثل علاقات القرابة والانتماء للقبيلة والعلاقة المباشرة بالطبيعة، وإحلال علاقات غير شخصية مجردة محلها مبنية على التعاقد والمنفعة). لهذا نجد أن الفرد التقليدي يرفض الانصياع للقوانين العامة التي تجاوز نطاق هذه الولاءات والقيم الأخلاقية التقليدية، والتي لا تنطبق إلا على حياته الخاصة المباشرة، أما رقعة الحياة العامة فهي مباحة، ولا قداسة لها، ولذا لم يظهر ما يُسمَّى «الأخلاقيات المدنية». ولذا نجد في الجامعة على سبيل المثال، فتاة محجبة متمسكة بأهداب الفضيلة، مطيعة لوالديها، ولكنها لا تتورع عن الكذب على الأستاذ والغش في الامتحان، لأن الأستاذ والامتحان يقعان خارج نطاق الولاء التقليدي لمنظومة القيم التقليدية.

ومن أطرف الأمثلة على هذه الازدواجية، تصرف المصريين أمام البوفيه المفتوح open buffet. ففي المجتمع التقليدي حينما يُدعى المرء للطعام فهو لابد أن يأكل قليلاً، ثم يعلن أنه والحمد لله قد شبع، فيقوم مضيفه بتقديم المزيد من الطعام، فإن رفض الضيف فإن المضيف يُقسم بأغلظ الأيمان أنه لابد وأن يقبل أن يأكل المزيد «ولاَّ أكلنا لا يعجبك»، و"ماتكسفنيش»، و"خد دي من إيدي»، فيضطر الضيف المسكين إلى أكل المزيد. تنقلب الآية تمامًا أمام البوفيه المفتوح، إذ يتدافع الناس ويكدسون الطعام في أطباقهم إلى درجة التبديد. وقد سمعت مرة مدير أحد الفنادق يرجو النزلاء أن يأخذوا كل ما يريدون

www.scantopdf.eu

من طعام شريطة أن يأكلوه كله . ونفس التناقض يوجد في سلوك الناس داخل المسجد وخارجه ، فهم في صلاة الجمعة تجدهم يفسحون الأماكن بعضهم لبعض ويصطفون صفاً واحداً ويحرصون على أن يكون صفّاً مستقيماً («استقيموا يرحمكم الله») ويخرجون بشكل هادئ ، على سبيل المثال ، من المسجد . ولكن على بُعد خطوات منه إن كان يقف هناكّ بائع بطيخ تجدهم يتدافعون ويتشاجرون ولا يحترمون الطابور أو الدور . ولا يمكن تفسير هذا التناقض البيِّن في السلوك إلا من خلال إدراك المفهوم التقليدي للقيم الأخلاقية بحُسبانها ذات فاعلية في مجال الحياة الخاصة وحسب ، وأن الحياة العامة تقع خارج نطاق الأخلاق .

ولعل الظاهرة التي نشكو منها جميعاً ، وهي مشكلة سلم العمارة القذر ، مثل جيد آخر . فمعظم المصريين يحافظون على مستوى عال من النظافة داخل شققهم ، وهذا جزء من منظومتهم الأخلاقية التقليدية ، أما خارجها فمباحٌ ، ويتحول إلى «ملقف» للقمامة . ومن أكثر الأمثلة درامية هو حالة المرور في العواصم العربية والقيادة بسرعة جنونية ورفض الانصياع لإشارات المرور .

كان لنا قريب من كبار الموظفين في مصلحة التليفونات ، وجاء خبير ألماني لا أذكر بالضبط مهمته في أثناء ما يسمَّى « أسبوع المرور» . ورأى صاحبنا الألماني أن الشوارع تعج بكبار الضباط الذين يشيرون للسيارات . ولكن حيث إن حركة المرور كانت تتسم بالفوضى (بالمقارنة لألمانيا) فإن صاحبنا تصور أن الهدف من «أسبوع المرور» هو تشجيع الناس على عدم الانضباط حيث إن الانضباط الدائم يسبب مشكلات نفسية . ولذا ذهب صاحبنا الألماني لقريبي وقال له : «هر مصطفى ، أنتم تعيشون في مجتمع متحضر ، تحاولون أن تحلوا مشكلات الناس النفسية !» . فهز قريبي رأسه ، فالسكوت علامة الرضا ، ولا داعي للفضائح ! واستمرت سعادة صاحبنا الغامرة لمدة أسبوع ، ولكن حين زادت الفوضى بعد أسبوع وأخذت في التصاعد ، عاد صاحبنا الألماني وسأل قريبي : «هر مصطفى ، ألم ينته أسبوع المرور ؟ فلماذا هذه الفوضى المتزايدة؟» . وهنا اضطر قريبي إلى أن يخبره أن أسبوع المرور كان هو أسبوع الانضباط ، ذروة التنظيم ، وأن الفوضى المتصاعدة هي الأمر العادي .

وإذا كانت هذه القصة ملهاوية ، فقد ذكر لي صديق (من الأردن) قصة مأساوية/

www.scantopdf.eu

ملهاوية. إذ كان عليه أن يستقبل خبيراً سويديا جاء لدراسة حركة المرور في عمّان لتنظيمها. وبعد أن أوصله إلى الفندق، اتفقا على أن يلتقيا في اليوم التالي في تمام الساعة العاشرة صباحًا. ووصل صديقي إلى الفندق في الموعد المحدد، وطال انتظاره لأن الخبير السويدي لم يظهر. ثم ظهر فيما بعد أن المسكين كان يعبر أحد الشوارع فصدمته سيارة هشمت عظامه، وأنه في انتظار طائرة طبية لنقله إلى بلده ليُعالج هناك!

والحادثة التالية خبرتها بنفسي، ولا أدري كيف أصنفها. كنت أقف مرة عند إشارة مرور حمراء، وبدأ قائد السيارة التي تقف ورائي يطلق زمارته بطريقة تدل على الضيق. فنزلت إليه وأخبرته أن هناك إشارة حمراء، فقال مستنكراً: «يا دي النيلة، يعني كل ما تحمر الإشارة حنقف!» قالها بحنق شديد على هذا الذي يريد أن يستجيب لنظام المرور الإشاري غير الشخصي الذي يسري على الجميع، والذي بدونه تتحول الحياة إلى جحيم مقيم، كما هو الحال في مدينة القاهرة في معظم أيام الأسبوع. (ومع هذا يجب أن أشير إلى أن هذه الظاهرة، أي التناقض بين سلوك الإنسان في حياته الخاصة وحياته العامة آخذة في التفاقم رغم تصاعد معدلات التحديث والترشيد بسبب فساد كثير من النخب الحاكمة في العالم العربي، فهي تُعطي الإشارة للناس إلى أن رقعة الحياة العامة لا تنطبق عليها أي قيم أخلاقية، وأن الإيمان بالأخلاقيات المدنية هو من قبيل «الدون كيشوتية» التي يمكن أن تودي بالإنسان!).

وفي دراسة بعنوان «الفتيان الغرباء الروح: دراسة في استجابة الوجدان الأدبي العربي لعملية التحديث كما تتضح في ثلاث قصص قصيرة» تناولت قضية كيف يتحول الماضي والتقاليد إلى عبء على واقعنا الحديث من خلال تحليل قصة توما الخوري، الكاتب اللبناني، «نحن رجالك».

«تبدأ القصة في جو عصري للغاية - موسم الانتخابات - إذ يشارك المواطنون في عملية «صنع القرار». ولكن بعد أول جملة يستخدم الكاتب صورتين، فهو يقارن نشاط القرى غير العادي في أثناء الانتخابات بالبيض الذي تم ضربه جيداً. كما شبه حارات تلك القرى بخلايا النحل، أي أن الحركة الوجدانية هنا من العصر الحديث المبني على الفردية إلى المجتمع التقليدي المبني على الولاء للجماعة. وبعد هاتين الصورتين يعود الكاتب مرة أخرى للحديث عن أهمية الانتخابات وأهمية كل صوت يُدلى به فيها، ولهذا السبب

www.scantopdf.eu

يحضر الناخبون مستخدمين كل وسائل المواصلات الممكنة : الحمير والثيران والجمال واللوريات والأتوبيسات (الحافلات) وأي عربة من أي نوع .

«تتداخل إذن الأشياء ويذهب الناخبون إلى صندوق الاقتراع على ظهور الجمال ، والسبب واضح ، فعملية التحديث لم تتم بعد ، ثمة طرق قد تم رصفها وأخرى لم تُرصف بعد ، وهناك قرى لا يمكن بلوغها إلا عن طريق الهبوط «كالوحي تمامًا» كما يقول الراوي ، إما بمظلة القفز أو بالهليكوبتر ، وإلا فعلى المرء أن يترك وطنه كليّا وكأنه مهرب حشيش ليصل إليها عن طريق دولة أخرى مجاورة .

«في وسط هذه الأشكال التي لم تكتمل بعد ، يظهر أتوبيس أبو فحل المسمَّى ب «المحروسة» ، وهو خير رمز لهذا العالم ، فهو أتوبيس ، أي آلة ، جزء من العالم التكنولوجي المعاصر ، ولكنه يفقد هويته بالتدريج إلى أن يصبح جزءاً من العالم التقليدي . فالأتوبيس ذاته يجري أحيانًا كالحيوانات ، وأحيانًا أخرى يطير كالطيور . وحينما يسقط في نهاية الأمر فهو يطير في الهواء كالغزال ، وحينما يستقر على أرض الوادي فإن عجلاته تبدو وكأنها سيقان حيوان يرفس الفضاء . وحتى اسم «المحروسة» ، هو اسم لا يليق إلا بمركب شراعي جميل أو عربة «حنطور» تجرها الأحصنة . واسم السائق ، أبو فحل ، يشير إلى قيم تقليدية مثل الفحولة والذكورة ، وهي صفات ليست لها علاقة كبيرة بعملية قيادة السيارة التي تتطلب عدداً من الصفات النثرية العادية مثل الانتباه والحذر واتباع القواعد ومراعاة القوانين . وقد كُتب على الأتوبيس العبارة التقليدية «الحسود لا يسود» . وفي مساره لا يتبع الأتوبيس مساراً محدداً . كما هو الحال مع الأتوبيسات العصرية ، إنما يتبع طريقًا فريداً للغاية ؛ فهو قد يتوقف مرة ليشتري أحد الركاب سلعة ما ، أو ليقضي طفل حاجته ، ومرة أخرى ليشرب الركاب من عين يشتهر ماؤها بقدرته على شفاء المرارة . ويترك الأتوبيس مساره أحيانًا لتوصيل سيدة لمسافة قصيرة للغاية (عدة كيلومترات) . . وهكذا . ولكن الأتوبيس واسع ورحب - كما يقول الراوي - سعةَ ورحابةَ قلب السائق . وهكذا تختفي وسائل القياس الرياضية وتحل محلها وسائل قياس معنوية عاطفية .

«ويزداد فقدان الأتوبيس لهويته العصرية حينما ننظر إلى الركاب ، فهم بالتدريج قد تحولوا من مجرد ركاب (أفراد متفرقين في علاقة تعاقدية مع شركة الأتوبيس) إلى جماعة

www.scantopdf.eu

تقليدية تربط أعضاءها أواصر المودة والتراث المشترك ، ينخرطون في غناء المواويل بشتى أنواعها ، وينغمسون في رقص الدبكة ثم يتناولون العرق بما في ذلك السائق ، ثم يشتركون في مأدبة يقتسمون فيها طعامهم . وهكذا بعد أن اختفت الحدود الخارجية للأتوبيس اختفت أيضاً أي حدود داخلية . فالملكية الخاصة للطعام يحل محلها الاقتسام ، وذوات الركاب المنفصلة المستقلة ذابت ثم تداخلت عن طريق الغناء والرقص الجماعي . وماذا عن الانتخابات نفسها ؟ حينما يمر الأتوبيس على بلدة المرشح يهتف الجميع «كلنا رجالك/ زعرور بيه» وهو غناء لا يختلف كثيراً عن المواويل ، ينتج عنه فقدان للذات المنفصلة وامتزاج بالجماعة . وحينما يظهر زعرور بيه تطلق النيران من البنادق التي تعود إلى عهد نابليون بونابرت أوقبل ذلك بقليل ، ويهتف الركاب هتافاً يكفي لإسقاط أسوار أريحا (وهي إشارة إلى العهد القديم) ، ثم يختلط الهتاف بأصوات الحيوانات والطيور أو على الأقل يفزعها .

«ومن الواضح أن الراوي لا يعترض كثيراً على هذه الروح الجماعية وهذا الاعتزاز بالتراث ، ولكن المشكلة أن كل هذا يتم في الأتوبيس ، الموقف المناسب في المكان غير المناسب ! وقد أطلق الراوي التحذيرات من البداية ، فمن بين الركاب نقابل أم سليمان ، أرملة أحد السائقين والذي نجا بأعجوبة حينما سقط الأتوبيس الذي كان يقوده في الوادي (ولكنه مات من فرط الحزن فيما بعد) . ويخبرنا الراوي كذلك أن الطريق ملتو معلق في الهواء ! بل إن كثيراً من الركاب خامرهم الإحساس بشيء من الخوف ، ولكنهم تغلبوا على مخاوفهم . وحينما تبدأ طقوس شرب العرق (التي تصبح بمعنى من المعاني طقوس الهلاك) يحتج على ذلك أحد الركاب ، ولكن مساعد السائق يقول إن أبا فحل لا يفقد وعيه حتى لو شرب برميلاً كاملاً . وحينما يلاحظ بعض الركاب أن السائق نسي دوره العصري كليّا كسائق ، وانغمس في بعض النشاطات الإنسانية التقليدية ، مثل ملاعبة الحسناء التي تجلس إلى جواره ومحاولة اختطاف قبلة منها ، فإنهم لا يحتجون بل يقلده أحدهم (ويحاول اختطاف قبلة من جارته) ، ويصيح الآخر متمنيّا للسائق حظا سعيداً ! أي أنهم هم أيضاً يفقدون دورهم كركاب (شيء محايد ، غير شخصي ، مجرد) ويتحولون إلى شيء آخر (أعضاء في جماعة يحبون ويكرهون) ويشتركون في الفعلة . ومن أكثر التعليقات سخرية على أحداث القصة الموال الذي يذيعه الراديو :

www.scantopdf.eu

لـــولا عــيــونك مـــا جــينا

وصلتـــينا لنصف البيـــر

وقطعتي الحـبل فـــينـــا

«وهو مـوال شـعـبي تقليـدي ، ولكنه يصف الكارثة التي على وَشْك الوقـوع . ولم يكتف الراوي بتنبيه القارئ إلى أسباب الكارثة قبل وقوعها ، بل غرس شخصية واحدة عصرية داخل الرواية ، يحذر وينذر ولكنه يصبح محط السخرية بسبب موقفه ، ثم يسقط الأتوبيس في الوادي والراديو لا يزال يذيع الموال الذي يشكو فيه المغني من لوعة الهوى ثم يتوقف فجأة. لا ينجو من السقطة سوى الغريب العصري الذي يخرج من الأتوبيس ثم يصـفق بكلتـا يديه هاتفًا «كلنا رجالك/ زعرور بيه»، ويقضي بقية أيامه في مـستشفى للمجاذيب!» .

والمجتمع التقليدي مجتمع - كما قلت - يحدد كل شيء ويتدخل في كل شيء ، وموروثه الحضاري ، برغم أنه قد يحمي الإنسان من التقاليع وهجمة الحداثة ويساعده على تأكيد هويته في مواجهة عالم رمادي لا شخصي ، يشكل عبئًا على المرء ، خاصةً إن كان يريد التغيير والإبداع . أذكر أنني عام ١٩٦٩ حضرت اجتماعًا لإحدى لجان الاتحاد الاشتراكي ، في إحدى القرى المجاورة لدمنهور . وفوجئت بأن الهدف من الاجتماع هو عـقد تحالف بين الوفـديين والسعـديين (نعم . . الوفـديين والسعـديين!) حتى يخوضـوا انتـخابات الاتحاد الاشـتـراكي كـجبـهـة واحـدة . ومـرة ذهبت مع أحـد أصـدقـائي (في الستينيات) لخطبة إحدى الفتيات في دمنهور ، فطلبت منها أمها أن تلعب لنا البيانو ، لتظهر براعتها أمامنا (ولتبين لنا انتماءها الطبقي البورجوازي ، فهي عندها بيانو ، عادةً ما تثوي عليه الظلمات بعد الزواج!) ، فقامت الفتاة وعزفت على البيانو نشيد «للمليك اهتفوا دائمًـا دائمًـا/ نحن من حـوله/ فـدية للوطن/ للمليك/ يا بلاد اهتـفي/ بالمليك/ يا بلاد افرحي . . . إلخ» . فارتسمت علامات الإعجاب على وجه أم صديقي ، وقد وفق الله رأسين في الحلال في أيام الاشتراكية على أنغام ملكية !

وهذا يذكرني بمادة الحضارة التي كنت أدرِّسها للطالبات في كلية البنات ، وحيث إنني كنت قد بدأت أهتم بالأثاث ، حاولت أن أدرِّس لهن تطور طرزه المختلفة ، كتعبير عن تطور الأفكار والأنماط الحضارية . فكنت على سبيل المثال أدرس معهن الأثاث والموسيقى

www.scantopdf.eu

والتصوير في العصر الرومانتيكي وأربط كل هذا بما أدرِّس لهن من شعر وتاريخ الأفكار . كما كنت آخذهن لبعض المتاحف ومحلات الأثاث ذات الذوق الرفيع . وكان الهدف هو أن أجعل من دراسة تاريخ الأفكار شيئًا حيًّا ، يستفدن منه في حياتهن ، وليس مجرد شيء بعيد يستذكرنه وينسينه بعد الامتحانات . كما أن نوع المعرفة التي كُنَّ يكتسبنها بهذه الطريقة ، يمكن توظيفها في عملية اختيارهن أثاث منازلهن بدلاً من أن يشترين أثاثًا بشعًا (ومكلفًا) من بعض محلات الأثاث التي تخصصت في إفساد الذوق . فجاءتني إحدى الطالبات في غاية الحزن ، وقالت : «ما الفائدة من كل هذا؟ أمي هي التي ستختار ، وهي التي ستقرر ، وهي التي ستشتري لي الأثاث حسبما يروق لها» . والطالبة – للأسف – كانت محقة تمامًا . حينما اشتريت غرفة مائدة قديمة، وكانت جميلة ، صعقت إحدى قريباتي وأخبرتني هامسة واثقة أنني لابد أن أزعم أنها جديدة ، وإلا أصبحت فضيحة بجلاجل للعائلة بأسرها . فالمهم في الأثاث أن يكون جديدًا ومكلفًا !

إن المشكلة التي تواجهنا هي : هل يمكن أن ندخل العصر الحديث ، وننفض عن أنفسنا رتابة المجتمع التقليدي واتجاهه نحو تكرار نفسه ؟ هل يمكن أن نفعل هذا دون أن نضيِّع تلك العناصر الإيجابية التي يتسم بها المجتمع التقليدي؟ هل يمكن أن ندخل المستقبل ومعنا ماضينا، نحمله كهوية وذات تحرِّرنا من اللحظة المباشرة ، وتحفظ لنا خصوصيتنا ، وتساعدنا على أن نجد اتجاهنا . لا كعبء يثقل كاهلنا ؟

من التراحم إلى التعاقد

كانت مدينة دمنهور مدينة تجارية حديثة تسود فيها العلاقات التعاقدية التي تسود في المدن والمجتمعات الحديثة (أي أنها كانت تنتمي لنمط الجيسيلشافت Gesselleschaft على حد قول علماء الاجتماع الألمان) . ولكن تحت القشرة الحديثة كان هناك مجتمع تقليدي ، جماعة مترابطة متراحمة (جماينشافت Gemeinschaft) لم تكن العلاقات فيها مبنية على المنفعة واللذة وحسب ، إذ كانت هناك حسابات أخرى غير مادية وغير أنانية تشكل مكونًا أساسيًا في هذه العلاقات . وأرجو ألا يُفهم مما أقول أنني أدعو إلى العودة إلى الماضي (فهذا على كلٍّ مستحيل)، إذ إنني لا أنكر – كما أسلفت – وجود جوانب مظلمة للمجتمع التقليدي (فمثل هذا الإنكار أمر طفولي) . كل ما أود تأكيده هو

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

أن المجتمعات التقليدية كانت تحوي منظومات قيمية وجمالية لم يؤد تقويضها وتدميرها بالضرورة إلى مزيد من السعادة . كما أود الإشارة إلى أن الأشكال الحضارية الحديثة (عادةً المستوردة) ليست هي الأشكال الحضارية الوحيدة ، بل هناك أشكال أخرى قد تكون أكثر ثراء وأكثر دفئًا ، والأهم من هذا أنها قد تكون أكثر تجذرًا ، وضياع مثل هذه الأشكال هو خسارة حقيقية .

وقد اكتسب الصراع بين «الجماينشافت» و«الجيسيلشافت» ، ومظاهر الانتقال من الواحد إلى الآخر ، مركزية في علم الاجتماع الألماني بسبب الوضع الاقتصادي والحضاري المتميّز لألمانيا ؛ التي دخلت عالم التحديث والتصنيع بخطى حثيثة في وقت متأخر (بالنسبة لبقية أوربا) . وبرغم تصاعد عمليات التحديث والتصنيع فيها ، فقد ظلت الأشكال الحضارية والاقتصادية ، التي سادت في مجتمع ما قبل الصناعة والرأسمالية ، مزدهرة فيها بكل محاسنها وعيوبها . ولذا ، كانت هذه الأشكال الحضارية هي الأرضية التي وقف عليها علماء الاجتماع الألمان فطرحوا ، انطلاقًا منها ، بديلاً للعلاقات التعاقدية التي تهيمن على المجتمعات الرأسمالية . وينتمي ماركس (برغم ديباجاته الثورية) إلى تقاليد علم الاجتماع الألماني وإعجابه بالجماينشافت التراحمي التقليدي . كما أن النقد الماركسي الإنساني (جيورجي [جورج] لوكاش Gyorgy Luckacs - مدرسة فرانكفورت - هربرت ماركوز Herbert Marcuse . . . إلخ) للحداثة الغربية ولمصير الإنسان الغربي يخرج من نفس هذه التقاليد .

وأعتقد أن علاقتي بدمنهور بماضيها وحاضرها تشبه إلى حدٍّ كبير علاقة علماء علم الاجتماع بماضي ألمانيا وحاضرها . ولعلنا لو درسنا خلفية كثير من المثقفين المصريين (وخصوصًا الثوريين) فسنلاحظ أنهم عاشوا لحظات انتقال مثل هذه . ولعل هذا يفسر الخلفية الريفية لكثير من مثقفي مصر ممن أدوا دورًا في تاريخ مصر السياسي والثقافي الحديث . وأعتقد أن هذا الجانب في خلفيتي الثقافية هو ما جعلني أحاول اكتشاف الأدبيات الاحتجاجية في التراث الغربي ، وهو ما جعلني لا أنبهر بالمجتمع الأمريكي ، فنقطتي المرجعية كانت دائمًا هي المجتمع الزراعي التراحمي . ومن الطريف أن أحد أساتذتي بعد أن قرأ رسالتي للدكتوراه ، بما فيها من ثورية ورفض للرؤية الأمريكية واقتصاديات السوق الحر وصفها بأنها رسالة neo-feudalist Marxit (نيو فيوداليست ماركست) أي أنها ذات توجه ماركسي إقطاعي جديد !

www.scantopdf.eu

ولأنني عشت هذا الانتقال بكل جوانبه (وتدعم إحساسي به حينما انتقلت من دمنهور إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى نيويورك ، أي انتقلت من مجتمعات أقل تعاقدية إلى مجتمعات أكثر تعاقدية ، إلى أن وصلت إلى مانهاتن قمة التعاقد) أقول بسبب هذا كله أصبحت ملاحظًا قويًا لعلاقات التعاقد والتراحم ، وأصبح التناقض بينهما أحد أهم المقولات الأساسية في خريطتي الإدراكية للعالم (النموذج المعرفي) .

فعلى سبيل المثال كنت ألاحظ علاقة والدي بالعمال داخل متجرنا وبكل من يعملون عندنا . كان والدي ولا شك هو صاحب العمل الذي يدفع لهم أجورهم ، يقتِّر ويغدق عليهم حسبما يراه هو مناسبًا . ولكن التفاوت الاقتصادي (والصراع الطبقي) كانت تقلل من حدتهما العلاقات التقليدية التراحمية والواجبات الاجتماعية والأخلاقية الملقاة على عاتق والدي بحُسبانه «معلم كبير» وصاحب عمل . وأسلوب حياة العمال وصاحب العمل كان أسلوبًا واحدًا ، الأعياد هي هي ، والأحزان هي هي ، واللغة هي هي ، وطريقة الطعام هي هي . جميعهم كانوا يحتفلون بمولد النبي ولا يحتفلون بأعياد الميلاد أو رأس السنة . جميعهم كانوا يلبسون بنفس الطريقة (فالملابس الغربية كانت لا تزال هامشية) ، وجميعهم كانوا يُصلّون معًا ، ويعملون معًا ، ويقضون أوقات فراغهم معًا ، وكان أولاد التجار والعمال والموظفين ينفضون عن أنفسهم انتماءاتهم الطبقية بعد الظهيرة ليشتركوا معًا في اللعب ، فلم تكن اللعب الإلكترونية الحديثة قد ظهرت بعد . وكان يُعاد تشكيل الهرم الحاكم حسب المهارات الشخصية . فبرغم أنني كنت ابن الحاج محمد المسيري الشهير بالحصافي فقد كنت خائبًا ، أفشل دائمًا في أن أطيِّر طائرتي الورقية (وهو مازلت فاشلاً فيه ، وأحتار منه . فمهما كان نوع الطائرة الذي أشتريه ، فهي تهوي بسرعة إلى الأرض دون سبب واضح!) . ولذا كان عليَّ أن ألجأ إلى عمال محل والدي كي يساعدوني في ذلك .

ويتبدّى هذا الصراع بين التراحمية والتعاقدية في الهدية . فنظام «النقطة» في الأفراح المصرية يبدو كما لو كان عملية تبادلية مع أنه في واقع الأمر هو نظام للزكاة وتوزيع أجزاء من الثروة . ففي داخل الأسرة الواحدة الممتدة يوجد دائمًا الأغنياء والفقراء ، فكان الجميع يعطون للعروس نقطة : مبلغًا من المال يُدس في يد العروس بحيث لا يراه أحد ولا يعرف مقداره (على عكس «النقطة» التي تُعطى «للعالمة» [الراقصة] ، فهذه تُعلن على رءوس الأشهاد!) . وفي إطار عملية التبادل الظاهرية هذه يتم إعادة توزيع الثروة ، إذ يعطي الأثرياء نقطة تفوق بمراحل تلك التي يعطيها الفقراء لابنة الأثرياء .

www.scantopdf.eu

وإدراك التراحم كإطار مرجعي نهائي ، يظهر في موقف الفقراء من الزكاه ، فهم يَعُدُّونها «حقّا» لهم وليس منحة يعطيها إياهم الأثرياء، فهي «واجب» عليهم . وهذا الإدراك لا يزال سائداً حتى في القاهرة . تقوم زوجتي بتوزيع الكفارة المفروضة لأنني لا أصوم رمضان بسبب هبوط السكر . وفي مرة أعطت أحد الفقراء مبلغًا من المال وأخبرته أن هذا زكاة إفطار الدكتور، فابتسم وقال : «حكمة ربنا ، لو لم يمرض الدكتور ، لما أكلنا نحن» . وأعتقد أن هذا الإدراك للزكاة بحُسبانها واجبًا على الأثرياء وحقّا للفقراء هو ما يخفف من حدة الفقر في هذا البلد، وهو ما يعطيه شيئًا من الاستمرار .

ونفس النمط ، التراحم ضد التعاقد، يعبِّر عن نفسه في علاقتي بخادمي المصري في السعودية، الذي كان يأتي مرة كل أسبوع لتنظيف المنزل وللقيام ببعض الأعباء المنزلية الأخرى . كان يصر دائمًا ، كل أسبوع ، عند لحظة تقاضي أجره، أن يقول : «بلاش يابيه . خليها عليَّ هذه المرة» . وبعض الناس يرى أن هذه العبارة هي تعبير عن «النفاق» . ولكني أجد مثل هذا التفسير سطحيّا ، فقد حللت هذه العبارة، ووجدت أنه ، في واقع الأمر، يقول : «برغم أنني أعمل خادمًا عندك وأدخل معك في علاقة تعاقدية ، فإننا من الناحية الإنسانية متساويان ، ولابد أن ندخل في علاقة تراحمية تتجاوز عمليات التبادل الاقتصادية (خدمات مقابل نقود) . لكل هذا لا داعي لأن تدفع لي هذه المرة» . ولذا كنت أحيانًا أخبره أنني ليس معي نقود وأرجوه أن يأخذ أجره في الأسبوع الذي يليه . وبذلك أعطيه الفرصة أن يكون دائني ولأن يدخل معي في علاقة مساواة إنسانية تراحمية .

ويبدو أنني آثرت التراحم والتعاون على التعاقد والتنافس والصراع من بداية حياتي . فكنت أكره رياضة الصيد بعمق شديد . كما أقلعت عن لعب كرة السلة بسبب التنافس الشديد الذي كان يسود الملعب (على الرغم من أن الأستاذ الحبروك ، أستاذ التربية الرياضية ، كان يخبرنا بأن قيم المحبة أهم من قيم التعاقد ، ولذا حينما كانت إحدى فرق الأقاليم المجاورة لدمنهور تزورنا ، وهم بطبيعة الحال أقل منا مهارة وخبرة ، كان الأستاذ الحبروك يطلب منا أن ندعهم يسجلون بعض الأهداف حتى لا يصابوا بالإحباط الكامل) .

وقد ولّد فيّ الانتماء للمجتمع التقليدي التراحمي كثيراً من المشاعر والسمات .

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

فيمكن القول بأن ثقتي بنفسي تعود إلى طفولتي وصباي، حيث كنت أتحرك في مجتمع أعرف كل من فيه ويعرفونني ويعرفون أبي وأعمامي وأخوالي. ولعل المجتمع التقليدي التراحمي هو أيضًا الذي ولّد فيّ الحرص على علاقاتي الإنسانية وصداقاتي. فأنا لا أدع الصداقات تضمر بتغير الزمان والمكان. يخبرني صديقي كاڤين رايلي Kevin Reilly، المؤرخ الأمريكي، أنني حينما قابلته عام ١٩٦٤، ونشأت صداقة حميمة بيننا، قلت له: «متى دخلت حياتي، فلن أسمح لك بالخروج منها». ومع أنني كنت قد نسيت هذه العبارة فإنها بالفعل تصف جانبًا مهمّا من شخصيتي. ولذا فإن لي صداقات ممتدة منذ طفولتي وصباي (د. عطية حامد)، واستمرت صداقتي مع بعض زملائي من جامعة الإسكندرية (جمال إمام الذي تزوج من طالبتي يُسر، وفتحي أبو رفيعة وزوجته نادية قورة)، ثم جامعة رتجرز (فيكتور طومسون وزوجته شارون، ستيڤن ميللر وزوجته إيڤا، وبيل جولدن)، ولا تزال علاقة قوية تربطني بأستاذي المشرف في الولايات المتحدة. ومازلت قادرًا على إقامة علاقة حميمة مع أصدقاء جدد كصداقتي العائلية أنا وزوجتي مع الأستاذ محمد إسلام وزوجته نعمات، وهذه صداقة بدأت منذ بضع سنوات (في عصر ما بعد **الموسوعة**) ولكنها تطورت وتعمقت.

لقد تعلمت من المجتمع التراحمي أهمية الإنسان ككائن حر نبيل وأهمية العواطف وأهمية الإفصاح عنها، ولعل هذا يفسر حبي لأفلام المخرج الياباني أكيرا كيروساوا، فهي عامرة بشخصيات ملحمية لا تتردد في التعبير عن مشاعرها وتعيش حياتها على مستوى يليق بأبطال الملاحم. كما يفسر عشقي للسيرة الهلالية، فهي الأخرى عمل ملحمي لغته نبيلة وشخصياته نبيلة والعواطف التي يعبر عنها متبلورة نبيلة. وكم كنت أحب أن أقرأ رواية سانت إكسوبري الأمير الصغير لأطفالي ولنفسي، وأقص عليهم كيف أن الثعلب علّم الأمير كيفية الدخول في صداقة حميمة، وكيف أنه في لحظة الفراق يقول الأمير للثعلب: «أنت لم تقل لي عن أحزان هذه اللحظة». فيعترف الثعلب أنه لم يفعل، ولكنه يعطيه ظرفًا ويخبره ألا يفتحه إلا بعد أن يفترقا. وحينما يفتحه الأمير يجد فيه هذه العبارة: «لا يمكن أن ترى الأشياء بوضوح إلا من خلال القلب، فكل الأمور الجوهرية غير مرئية». و الأمور الجوهرية هي الأمور الإنسانية، وما عدا ذلك فأمور طبيعية مادية.

ولعل علاقتي بوالدي ووالدتي والاختلاف الواضح بين شخصيتيهما، مما يفسر هذا النفور من التعاقد والنزوع نحو التراحم. فأمي - كما بيّنت - كانت مثالاً للتراحم وقيم

www.scantopdf.eu

المجتمع التقليدي ، أما والدي - رحمه الله - فكان من كبار التجار في دمنهور ، يقول من يفهمون في شئون التجارة إنه كان ساحراً في عمليات البيع والشراء . كم من مرة رأيته وهو يوظف كل ما حوله ببراعة فائقة . حينما كان يزورنا أحد كبار التجار كنت أتحول بقدرة قادر إلى «الأستاذ» عبد الوهاب . وحينما بدأ اسمي يظهر في الجرائد كمؤلف لمقالات أو كتب كان يطلب مني أن أحضرها لأريها لهؤلاء التجار ليزداد اسم المسيري هيبة أمامهم (مما يحسِّن بطبيعة الحال موقفنا التفاوضي) . وكان يُجزل لي العطاء كلما ورد اسمي في الجرائد . وقد عرف هذا بعض أصدقائي من الأدباء المفلسين فكانوا ينشرون أخباراً كثيرة عني (بعضها وهمي) . وكانت الثمرة هي بضعة جنيهات من والدي ننفقها على الكفتة والكباب في أحد مطاعم القاهرة الرخيصة .

أذكر مرة أننا كنا نبحث عن مكان لنعقد فيه عُرس إحدى أخواتي . وذهبت إلى إحدى الكازينوهات في الإسكندرية (وكان هذا هو التقليد المتبع آنذاك) وكان جديداً وأنيقًا . وبرغم كرهي لشئون التجارة فإنني أجيد المساومة عند الحاجة ، ولذا نجحت في استئجار المكان بسعر تصورته ساعتها زهيداً (ووافقني الجميع على ذلك) . وذهبت لأزف البشرى لوالدي ، وكان مريضًا ، ولكنه بدلاً من أن يفرح بإنجازي تجهم وجهه واتجه إلى التليفون متوكئًا عليّ ، ثم طلب صاحب الكازينو وأخبره أن «الأستاذ عبد الوهاب» قد عقد معه اتفاقًا غير عادل بالمرة . وبدأ يعدد له المزايا التي سيجنيها من عقد عُرس إحدى بنات المسيري في الكازينو عنده . ثم قرأ عليه قائمة المدعوين وأخبره أن هذا في حد ذاته سيكون أكبر دعاية له ، وأنه لهذا يجب عليه أن يدفع لنا ، لا أن ندفع له . فسقط في يد الرجل واضطر إلى أن يخفض السعر حتى وصل إلى حد دون الأدنى .

ويقول من يعرفونه إنني ورثت عنه حب النكتة والديناميكية والمقدرة على الانفصال عن اللحظة وبعض الصفات الأخرى . كان والدي ، على سبيل المثال ، قادراً على أن يتوقف في إحدى المدن الصغيرة التي يوجد بها عدد من تجار القطاعي الذين يتعاملون معه ، وبينما هو يشرب كوبًا من عصير القصب يبدأ في تجميع المعلومات عن عملائه : من اشترى قطعة أرض؟ من باع عقاره أو كتبها باسم زوجته ؟ من تزوج للمرة الثانية ؟ ويتوصل من خلال هذه المعلومات المتناثرة إلى فكرة عامة عن وضعهم المالي . وكان - رحمه الله - بوسعه أن يجري حواراً مع شخص ما ، ويسمع ما يجري من حوارات حوله ، وقد ورثت عنه هذه المقدرة كما ورثت عنه بعض المقدرات التجارية . أذكر أنني

www.scantopdf.eu

حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ اكتشفت هوسهم بكل ما هو قديم، خصوصًا السيارات. فقرَّرت أن من ينزل إلى مصر ويشتري السيارات القديمة ويشحنها إلى الولايات المتحدة سيصبح مليونيرًا. ولكنني بطبيعة الحال أهملت الأمر تمامًا لأنني كنت مشغولاً بدراسة الشعر. ثم قرأت في مجلة تايم عام ١٩٦٥ أن تاجرًا لبنانيًّا قد فعل هذا بالضبط وأصبح مليونيرًا!

ويبدو أن والدي كان مدركًا لمسألة التعاقد والتراحم هذه، ويظهر هذا في موقفه من الصدقات. فكان عمي - رحمه الله - يحب أن يتصدق على المتسولين فردًا فردًا. أما والدي فكان يُفضل ترشيد هذه العملية بأن تُعطى إعانات ثابتة لبعض العائلات. ويتضح المزج بين التراحم والتعاقد في أسلوب إدارته للمصنع الذي اشتراه في الحضرة في الإسكندرية. كان والدي يعرف تمامًا أنه لن يمكنه أن يديره على الأساس التراحمي الدمنهوري، فقرر توظيف التراحم في خدمة التعاقد، إذ عيَّن رؤساء الأقسام في مصنع الإسكندرية من عماله السابقين في محلنا في دمنهور، وهم طبعًا يدينون له بالولاء «الإقطاعي» إن صح التعبير، فهم من «محاسيبه»، كما يسمّون في العامية المصرية، ومن خلالهم يمكنه إدارة المصنع بطريقة تراحمية/ تعاقدية.

أما أمي فكانت غير مكترثة تمامًا بمسألة التراكم الرأسمالي هذه، وكانت دائمًا تعبِّر عن ازدرائها للثروة التي تزداد تراكمًا، والتي تؤدي في الوقت نفسه إلى ابتعاد زوجها عن أسرته (إذ كان دائم السفر). (كم من مرة رأيته جالسًا بجوار الباب يبكي لأنه لا يمكن أن يوقف نفسه عن الجري وعن التراكم، فكانت أمي تقف تطيب خاطره، إلى أن يجفف دموعه ثم يقفز من مكانه ليستأنف الجري). ولعل تأثير أمي هذا يفسر رفضي للعمل في التجارة، برغم محاولات والدي المختلفة أن أعمل معه فيها.

أذكر حينما قررت الزواج من د. هدى حجازي أن ذهبت إليه ليموِّل هذه الزيجة، فأراد أن يستخدم هذا الوضع للضغط عليَّ. فأخبرني أنني يمكنني الاقتران بچوليت (حسبما قال) إن وافقت على العمل معه. فقلت: لكنني أريد دراسة الشعر. قال إنه لا مانع لديه أن أذهب للخارج للحصول على الماجستير في الشعر، وأعود لأعمل معه في التجارة. فوافقت، ولكنني عدت له بعد ٢٤ ساعة وأخبرته أنني غيَّرت رأيي، وأن الأمر متروك له أن يوافق على التمويل أو يرفضه. وكان كريمًا فأذعن للأمر ووافق.

www.scantopdf.eu

وقد ظلت هذه الروح التراحمية التقليدية راسخة في وجداني. فبعد وصولي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣، عُرض عليّ أن أظهر في إعلان تليفزيوني عن الأحذية. وكان المطلوب أن ألبس حذاءً جديداً (يصبح من نصيبي فيما بعد)، ثم أسير في غرفة فينظر الجميع إلى حذائي بإعجاب شديد. ولم يكن الجنس قد أصبح بعد عنصراً أساسيًا في الإعلانات، ولذا لم تكن هناك حسناء تقع في هواي، بحُسباني لابس الحذاء. المهم، رفضت أن أشترك في هذه المهزلة، لأنني كنت سأصبح شيئًا، يبيع نفسه حسب عقد محدد.

ولعل نفس الروح التراحمية تظهر في طريقة قبولي الهدايا. إذ إنه حينما كان أحدهم يعطيني هدية ملفوفة كنت آخذها كما هي فأشكر صاحبها ولا أفض غلافها. وحينما نبهني أحدهم، في الولايات المتحدة، إلى ضرورة فض غلاف الهدية وإظهار الإعجاب بها، أدركت أننا في مصر لا نفعل ذلك أبداً، ففضُّ غلاف الهدية وعرضها يعني تحولها من قيمة إنسانية (كيف) إلى ثمن محدد (كم)، ومن هنا إخراجها من عالم التراحم إلى عالم التعاقد والتبادل. وقد امتد بي العمر لأرى ملامح «التقدم» في السبعينيات، إذ إننا نفض غلاف الهدايا الآن ونعرضها على الملأ، «واللي ما يشتري يتفرج!».

وقد لاحظت حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة أنني كلما دعوت أحد أصدقائي الأمريكيين إلى طعام العشاء، أصر على أن يحضر شيئًا معه، وبعد العشاء كانوا عادةً يرسلون بطاقة شكر. كنت أتبرم بهذا، وأرفض أن أفعله، ولكني في بداية الأمر لم أعرف السبب. وظللت أحاول تفسير استجابتي هذه لنفسي لمدة طويلة، ولم ينقذني من طول الفكر إلا الواقعة التالية، والتي حدثت لأحد أصدقائي. دعا هذا الصديق صديقة أمريكية لتناول طعام العشاء معه في أحد المطاعم وكانت من أسرة ثرية جداً، من سكان القصور في بوسطن، حيث يدخل الضيف فيقوم رئيس الخدم بإعلان وصوله وتفتح البوابات والأبواب ثم تغلق، تماماً كما هو الحال في الأفلام الأمريكية. وكان على صديقي أن يلتقي بأم صديقته ليستأذنها في اصطحاب ابنتها للعشاء (كان هذا في الستينيات، حينما كانت مثل هذه الأمور ضرورية، أما الآن فالمسألة أكثر انفتاحاً وتحرراً، بل تُعدُّ الفتاة التي تستأذن أسرتها متخلفة، ضيقة الأفق). وكان للصديقة طفلة من زواج سابق، قبلت الأم أن تكون جليستها في تلك الليلة. وبعد أن ذهب صديقي للمطعم مع صديقته وعاد معها إلى منزلها، فوجئ بالابنة تخرج دفتر الشيكات وتعطي لأمها شيكًا بمقدار عشرة دولارات

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

أجرًا لها عن مجالستها الطفلة . هنا أدركت معنى هذه الواقعة وفحوى الكثير من التفاصيل في حياتي في الولايات المتحدة . فالأم بطبيعة الحال ليست في حاجة إلى عشرة دولارات، فهو مبلغ من المال ليس له أي قيمة، حتى في الستينيات . ولكن ما تم هنا هو شعائر التعاقد، وهي شعائر لابد من إقامتها حتى تسود التعاقدية وتتغلغل في كل العلاقات، بما في ذلك علاقة البنت بأمها، لا يفلت من قبضتها شيء، وبذلك يسود النموذج ويؤكد نفسه . (تمامًا كما هو الحال في حلقة الكولا التي سنشير لها فيما بعد) .

ونفس الشيء ينطبق على إصرار الأمريكيين على أن يحضروا معهم هديةً ما، إذا دُعوا لطعام العشاء (زجاجة نبيذ - بعض الحلوى . . . إلخ) وأن يرسلوا بطاقة شكر بعد كل دعوة . فالهدف هنا هو إدخال العشاء في شبكة التعاقد ثم إنهاء العلاقة (مؤقتًا من خلال بطاقة شكر) وتأكيد أن كل شيء تم احتواؤه داخل إطار التعاقد . ولعل القصة التالية توضح هذه النقطة بشكل أكثر تبلوراً : دعوت أستاذاً جامعيًا وزوجته لطعام العشاء، وشاءت الظروف أن الزوجين انفصلا بعد دعوتنا، ولكننا فوجئنا بالزوجة تدعونا للعشاء برغم أن معرفتنا بها كانت سطحية لأقصى حد . ومع هذا رحبنا بالدعوة ظنّا منا أنها تود أن تستمر الصداقة بيننا، وذهبنا لزيارتها، ولكنها كانت المرة الأولى والأخيرة، إذ يبدو أن الزوجين بعد أن انفصلا وجدا أن من واجبهما «رد الدين»، حيث إن الزوج ذهب إلى أريزونا، وكنت أنا وزوجتي من نصيب الزوجة، المقيمة في نيو جرسي، التي قامت بدعوتنا للعشاء من منطلق تعاقدي محض، مما خيَّب أملي وجعلني أشعر بأنني ضيعت وقتي . (كنت أُلقي محاضرة عن التحيز في مصر، وأوردت بعض أفكاري بخصوص الهدية وكيف تركنا رؤيتنا للعالم وتبنينا الرؤية الغربية . فقامت معيدة من الدارسات وقالت برقة شديدة : «النبي قبل الكادو» . فأخبرتها أن النبي قبل الهدية ورفض الكادو . وحسب معلوماتي لم يقم بفض غلافها أمام الملإ) .

وقد وجدت صعوبة بالغة في الولايات المتحدة أن أعلمهم أنه حينما يخرج الأصدقاء سويّا فلا داعي لأن يقتسموا الفاتورة، وليدفع من معه نقود حتى تصبح الليلة ليلة تراحمية، تبتعد عن الحسابات والكم وستتاح فرصة للآخرين أن يدفعوا في يوم آخر . وحينما كنت أخرج مع أحد الأصدقاء الأمريكيين كنت أبادر بدفع الفاتورة فكانوا يضطربون في بادئ الأمر ثم تعودوا على هذه الفوضى التراحمية (أخبرتني أم مصرية، مقيمة في الولايات المتحدة، أنها ذات مرة اقترحت على ابنها أن يدفع فاتورة طعام

www.scantopdf.eu

العشاء لأصدقائه، فما كان منه إلا أن قال: «لماذا أشتري عرفانهم بالجميل؟ Why should I buy their gratitude?» مما يبين هيمنة صور التعاقد والبيع والشراء المجازية على إدراك الأمريكيين).

والتعاقد يتغلغل في رقعة الحياة الخاصة. وكم صدمتني تلك المرأة التي قالت لزوجها: «انزل من على الشجرة، فأنت لم تدفع التأمين بعد!». ولكنني بمرور الأيام فهمت أنها كانت على حق، فلو وقع زوجها وأصيب إصابة خطرة، فإن هذا سيدمر حياتها تمامًا هي وأولادها لأن نفقات العلاج باهظة. بل إنني لاحظت أن شركات التأمين تعمق من هذا الاتجاه التعاقدي، فلو كان أب يقود سيارة واصطدم بسيارة أخرى وأصيب الابن، فإن عليه أن يرفع قضية على أبيه ليأخذ قيمة التأمين. ولو كنت تزور صديقًا في الولايات المتحدة في الولايات المتحدة وكُسرت يد ابنك في أثناء لعبه، فلابد أن يكون الصديق مؤمنًا عليه حتى يمكن للتأمين أن يغطي نفقات علاج ابنك وهكذا.

ومن أطرف قصص التعاقد ما أخبرني به صديق مصري يعمل في إحدى الشركات الكبرى في الولايات المتحدة. فقد أتت الشركة بطبيب نفسي ليعلِّم العاملين كيفية التغلب على التوتر، واقترح عليهم أن من المستحسن اختيار دين ما لتحقيق هذا الهدف لأن الدين يزيد من الرقعة الزمنية التي يعيش فيها الإنسان، فلا يشعر أنه محصور باللحظة المباشرة (أي أنه يرى أن الدين له مفعول الحبوب المهدئة، وهو بطبيعة الحال أقل تكلفة!). المهم بعد المحاضرة ذهب صديقي وقال له إن الإسلام يحتفظ للإنسان بقدر عال من التوازن بين الدنيا والآخرة، واقتبس له الحديث الشريف المعروف: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا». أعجب الطبيب كثيراً بهذا الحديث، وقال لصديقي هل يمكنه اقتباسه؟ فطمأنه صديقي إلى أنه يمكنه أن يفعل ذلك. ولكنه عاد وسأله: «مَن هو صاحب حقوق النشر؟» فأخبره صديقي أن قوانين حقوق النشر لا تنطبق على هذا القول. ولكن الطبيب استمر في طرح المزيد من الأسئلة عن مسألة حقوق النشر هذه ولم يتوقف إلا حينما أعطاه صديقي اسمه وعنوانه، وأخبره أنه لو تعرض لأي مساءلة قانونية، فيمكنه أن يحضره كشاهد إثبات.

ومع هذا لابد أن ندرك أن روح التعاقد لها جوانبها الإيجابية، فهي تضمن حقوق الإنسان وهي قد تقلل من التوترات بين الأفراد (برغم أنها تقوم بتقويض العلاقات

www.scantopdf.eu

الإنسانية الحميمة)، وهي تحدد الحقوق والواجبات بدقة. ولا يمكن لأي مجتمع أن تقوم له قائمة، إن لم يكن هناك احترام للتعاقد وما يتضمنه من حقوق وواجبات.

ولعل هذه القصة تبين هذه النقطة. حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩، اصطدم أتوبيس بسيارتى من الخلف فى شارع رمسيس. فذهبنا أنا وابنتى وسائق الأتوبيس إلى أقرب قسم شرطة لتحرير المخالفة للسائق، حتى يمكن مطالبة شركة النقل العام بالتعويض الذى أستحقه، أو هكذا تخيلت. ويبدو أن السائق كان معتاداً على الإجرام المرورى، وكان زبونًا دائما فى قسم الشرطة، ولذا حينما وصل إلى هناك بادر بمصافحة الجميع، وقدموا له كرسيا وأحضروا له كوبا من الشاى، وتبادلوا الأحاديث الودية الشخصية التراحمية، وكأنه ليس متهما بمخالفة مرورية. أما أنا فظللت واقفا مع ابنتى ننتظر الإجراءات التعاقدية اللاشخصية.

وحينما فرغوا من طقوس التراحم، طلب منى حضرة الصول، بوجهه المتجهم وبلهجة صارمة، بطاقتى العائلية. ولكنه حينما نظر فيها انفرجت أساريره، إذ وجد أننى بلدياته، فهو من قرية بجوار دمنهور (من الدلنجات)، كما أنه يعرف عائلة المسيرى، وسألنى عما إذا كنت أعرف فلانا وفلانا؟ وحين أجبت بالإيجاب وذكرت له بعض المعارف المشتركين، تأكد الرجل من انتمائى البحراوى الدمنهورى الأكيد الذى لا ريب فيه، وأننى بالفعل ابن المسيرى، وأننى ابن الحسب والنسب وابن الناس الطيبين.

وهنا حدث التحول الفجائى، إذ انقلب حضرة الصول تمامًا على السائق، وأخذ يعنفه ويخبره أنه لا يعرف كيف يقود الأتوبيس، وأنه «طايح فى خلق الله»، وأنه «ما عندهوش نظر» وكيف «يصدم ولاد الناس الطيبين»، وأنه . . . . وأنه . . . . وأدرك السائق أن موازين القوى قد تحولت تماما إلى صالح ابن المسيرى، فهرع إلى يستسمحنى ويقبل رأسى ويطلب منى الصفح والغفران، فهو يفهم تماما منطق الولاء القبلى، ولا يعرف منطق القانون العام.

وهنا أدركت أن القانون لا قيمة له، وأن مجموعة القيم التراحمية قد قوضت تماما القيم التعاقدية، وأنه فى مثل هذا الموقف حيث يسود التراحم بدلا من التعاقد والقانون لابد وأن أذعن، فقبلت اعتذار الرجل، الذى أقسم أغلظ الإيمان أنه لن يعود لها مرة أخرى، وأنه على أتم استعداد لإصلاح سيارتى. وهكذا ضاعت الحقيقة وذاب القانون

www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

فى فيض العواطف التراحمية النبيلة ، كما ضاع التعويض الذى كنت سأطالب به . (وعلى كل ، أخبرنى حضرة الصول أن شركات القطاع العام ، والمؤسسات الحكومية المختلفة لا تدفع أى تعويضات) .

والشيء نفسه حدث حينما كنت مريضاً وأقود سيارتى وصدمت سيارة في مؤخرتها ، فلاحظ الناس مرضى ، وأخبروا سائق السيارة الأخرى أن «المسامح كريم» و«البيه تعبان» و«ربنا يعوض» ، وهكذا . (عرفت فى حادثة أخرى أن فلكلور التراحم يجعل من العيب أن يتقاضى الإنسان تعويضاً عن خسائره المادية الأكيدة) . أوقفت فيض هذه العواطف الجميلة والعظيمة وأخبرت الجماهير التراحمية أننى أقدر مثل هذه العواطف حق قدرها ، ولكن تظل الحقيقة الصلبة أننى ألحقت خسائر مادية بسيارة هذا السائق المسكين ولابد من تعويضه ماديًا والاعتذار له تراحميا . ثم سألته كم سيتكلف إصلاح السيارة ، ثم أعطيته المبلغ المطلوب أمام ذهول أصحاب المنطق التراحمى الخالص (القمعى) .

ولكن معظم إيجابيات التعاقد تنصرف إلى رقعة الحياة العامة ، لأن رقعة الحياة الخاصة بكل ما فيها من تركيبية تتطلب شيئًا أكثر تركيبًا من التعاقد . ولعل هذه القصة توضح ما أقول : كان لي صديق مصري ثوري (كان يتهم الآخرين دائماً بأنهم باعوا أنفسهم وتخلوا عن نقائهم الثوري . . . إلخ) . ثم هاجر إلى الولايات المتحدة وغيَّر جلده تماماً ، إذ عمل باحثًا ثم مستشاراً في أحد مراكز البحوث الإستراتيجية في الولايات المتحدة والمعروفة بعلاقتها الوثيقة بالمؤسسة الحاكمة . ثم تزوج صديقي هذا من فتاة أمريكية! ولا ندري ماذا حدث له ، فقد أصيب بانهيار عصبي أودع على أثره في إحدى المصحات النفسية ، فوقفت زوجته إلى جواره لمدة أربع سنوات ، إلى أن شُفي تماماً ، وفي يوم خروجه من المستشفى طلبت منه الطلاق . إذ يبدو أنها وجدت أن من «واجبها» ، بموجب العقد بينها وبين زوجها أن تقف إلى جواره حتى يُشفى ، وهذا أمر يستحق الإعجاب بالفعل ، ولكنها وجدت أن من «حقها» أيضاً أن تنفصل عنه بعد أن ضيَّعت هذه الفترة من حياتها .

ولنقارن هذه الواقعة بالواقعة المصرية التالية : في الستينيات كان الحصول على بعثة ، بالنسبة لكثير من أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة ، يعني الحراك الاجتماعي الجذري ، فأساتذة الجامعة كانوا في قمة السلم الطبقي ، ولذا كان حلم كثير من الشباب المتفوق في الستينيات هو الحصول على بعثة . ومن هنا قام أحد الأصدقاء بالزواج من ابنة أحد كبار

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

الموظفين حتى يحقق حلمه بأسرع طريقة، وبالفعل حصل صاحبنا على بعثة من خلال صهره، وذهب إلى الولايات المتحدة، حيث التحق ببرنامج الدكتوراه. ولكن في يوم حصوله على الدكتوراه طلّق زوجته، وتزوج من أمريكية واستقر في الولايات المتحدة، وأصبح من كبار رجال الأعمال. وحضر إلى مصر وحصل على قروض كبيرة من البنوك، ثم فر بعدها من مصر. والمثلان السابقان لا يعنيان بأي حال أن كل الأمريكيين تعاقديون وأن كل المصريين انتهازيون، وإنما هما يحاولان أن يقدما نموذجين من مجتمعين مختلفين يعبران عن جانب مهم من النفس البشرية ولكنه يتبدى بشكلين مختلفين باختلاف الزمان والمكان.

ولعل الروح التعاقدية الصارمة (التي تقترب من حد السرقة) تظهر في علاقتي بأحد الناشرين في الولايات المتحدة، وهو مطبعة القارات الثلاث (ثري كونتيننتس برس Three Continents Press) الذي تولى نشر كتاب **العرس الفلسطيني**. وهذا الكتاب قمت بترجمته وطلبت إلى الفنان كمال بلاطة أن يصمم الغلاف، وأن يرسم عدة لوحات تزيّن كل فصل من فصول الكتاب. كما طلبت من خطاط عربي أن يكتب النص العربي حتى يكون الكتاب كتابًا فنيّا جميلاً. ودفعت من مالي الخاص مصروفات الفنان (بما في ذلك تصميم الغلاف) ومصروفات الخطاط، وكل ما فعله الناشر هو أنه قام بعملية الصف التصويري للترجمة التي أرسلتها إليه. وحينئذ اتصل بنا ناشر فرنسي لنشر طبعة فرنسية من الكتاب، وطلب التصريح بذلك. ولم يكن الكتاب قد نُشر بعد. وتصورت أن عائد الكتاب الفرنسي سيكون لي، لأن كل المواد التي سيستخدمها الناشر الفرنسي (الغلاف - الصور - النص العربي) قد دفعته من مالي الخاص (لأنه لن يستخدم النص الإنجليزي الذي قام الناشر بصفه وإنما سيستخدم ترجمتي). وفوجئت بأن الناشر يطلب ٥٠٪ من كل هذا، فهكذا ينص العقد.

وأختم قصص التعاقد هذه بقصة طريفة كانت بطلتها أختي التي حضرت من مصر لزيارتي في الولايات المتحدة: كنا نساعد أحد الأصدقاء الأمريكيين في نقل أمتعته من منزل لآخر. ونال العطش من أختي فأخبرتها أن تطلب ماء من أحد الجيران لأننا كنا في الشارع (كما نفعل نحن في مصر وفي غيرها من البلدان). فذهبت إلى الجارة التي كانت تقعد أمام منزلها وطلبت ماء، فقالت لها الجارة: "Why should I ?" لماذا أفعل ذلك؟» فلم تفهم أختي الإجابة، وجاءت لأفسرها لها، فأخبرتها أن هذه إجابة منطقية في إطار

www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

التعاقد والنماذج الرياضية المادية، وأن هذه السيدة رفضت أن تعطيها ماء لأنه لا توجد بنود في العقد تنص على ذلك ولا توجد أي فائدة تعود عليها من هذا الفعل.

ومرةً أخرى، أرجو ألا يُفهم من قصصي وتحليلي لها أنني أتصور أن المجتمع الأمريكي كله مجتمع تعاقدي. فأنا ابتداءً لا أدرس تفاصيل الواقع المتناثرة، الواحدة منفصلة عن الأخرى، وإنما أدرسه ككل، من خلال النماذج التحليلية. وحياة الأفراد أكثر تركيبًا وأكثر إنسانية من النموذج الإدراكي الحاكم، حتى لو تم استبطانه، فالإنسان يحب ويكره بفطرته. ولذا توجد في المجتمع الأمريكي جيوب تراحمية كثيرة. بل تتزايد أحيانًا هذه الجيوب كرد فعل للتعاقدية. وكان لنا العديد من الأصدقاء، خصوصًا الذين لهم خلفية أوربية، أي لم يتم دمجهم تمامًا في المجتمع، الذين لا يعرفون التعاقد، أو الذين نجحوا في أن ينحوه جانبًا في حياتهم الخاصة. وانتشار العبادات الجديدة هو في جوهره احتجاج على الروح التعاقدية ومحاولة لخلق جيب تراحمي، يوجد داخل المجتمع الحديث التعاقدي، لكن لا يخضع لقوانينه ومعاييره.

ولعل هذه القصة تبين أن رفض التعاقد والتمرد عليه قد يكون قويًا على مستوى الأفراد في الولايات المتحدة. كنت مرة أركب طائرة متجهة من نيويورك إلى أثينا، في الدرجة الأولى، بوصفي ممثلاً للجامعة العربية. وقعد إلى جواري شخص عملاق. وبعد أن بدأت الطائرة رحلتها بدأنا نتجاذب أطراف الحديث، فظهر أنه من أشهر لاعبي كرة القدم في الولايات المتحدة (كان بعض الصبية من راكبي الطائرة يأتون بأوتوجرافاتهم لتوقيعها، كما أصرت إحدى المضيفات أن تلتقط لها صورة معه). وقد دُهش صاحبنا تمامًا حين عرف أنني لم أسمع به قط. وحين سري عنه، قلت له: هل سمع هو بي من قبل؟ فقال: لا. قلت: حسنًا أنا أيضًا معروف إلى حدٍّ ما في بلدي في أوساط معينة. ثم نشأت صداقة سريعة بيننا وتحدثنا في كل شيء وبدأ يخبرني عن عالم الرياضة في الولايات المتحدة وكيف تحول إلى بيزنس كامل يهدف إلى الربح، وأنه وقَّع عقدًا مع ناديه الذي «يحوسله» تمامًا (الكلمة من نحتي وتعني تحويل الشيء، خصوصًا الإنسان، إلى وسيلة وهي على وزن «يبسمل» أي «ينطق بالبسملة») ويحوله إلى دجاجة سمينة في «قفص حديدي» («القفص الحديدي» هو بالمناسبة وصف ماكس فيبر Max Weber للترشيد والحداثة). في إطار هذه التعاقدية الصارمة كان عليه ممارسة تمرينات رياضية عنيفة وأن يأكل كميات معينة من الطعام تتضمن كميات من اللبن واللحم (شاء أم أبى). وروتين

www.scantopdf.eu

حياته بأسره أمر ينظمه له مدربه : بل إن سلوكه الجنسي يخضع لإشراف مدربه، ولا يمكنه أن يضاجع امرأة بدون إذن منه، وقبل المباريات عليه أن يمتنع عن أي علاقة جنسية! (وهنا بدأت أفهم كيف أن الحداثة ليست دائمًا شيئًا عظيمًا مثيراً، بل هي ظاهرة لها جوانبها المظلمة التي تؤدي إلى تفكيك الإنسان لا تحريره).

أدهشني حديثه للغاية، حيث كنت قد سمعت بصناعة الرياضة، ولكني لم أكن قد تعرفتها عن كثب، واتفقنا على أن نلتقي في نيويورك. واتصلت به هاتفيّا في منزله، ولكنني وجدت والديه اللذين رحبا بي ترحيبًا كبيراً وأخبراني أن ابنهما قد حدثهما عني وأنه يتطلع لرؤيتي. وفي اليوم التالي قابلت صديقًا لي وكانت صديقته محررة في مجلة رياضية، وحينما سمعت القصة ضحكت كثيراً وطلبت مني أن أرويها لقراء مجلتها نظير مبلغ كبير، على أن يمدني صديقي اللاعب الشهير بمزيد من المعلومات عن نفسه. وبالفعل اتصلت به وأخبرته بما أريد إنجازه فرفض، إذ شعر بأنني كنت أمثل له من قبل جيبًا تراحميّا، وأنني الآن أحاول إدخاله «القفص الحديدي»، أي أريد «حوسلته»، ولذا لم يجد أي معنى في الاستمرار في علاقتنا. وهكذا لم أكتب المقال، ولم أربح الدراهم التي كنت أمني نفسي بها، وفقدت صديقًا بسبب موقفي التعاقدي.

إن الفرد الأمريكي يعيش ثنائية حادة : تعاقدية في الحياة العامة على مستوى النموذج المهيمن، وتراحمية في الحياة الخاصة على مستوى الممارسة الشخصية. ولكن هناك مجتمعات تجعل تحقيق مشاعر التراحم أمراً عسيراً على المرء ومجتمعات أخرى تيسر تحقيقها. وكلما ازداد التناقض بين النموذج والواقع، ازدادت الثنائية إلى أن تتحول إلى استقطاب. وهذا التناقض موجود في الولايات المتحدة بين النموذج التعاقدي من جهة، وحياة الإنسان الفرد المتعينة من جهة أخرى.

وحتى أزيد مسألة التناقض بين النموذج والحياة الفردية وضوحًا أضرب مثلاً من المجتمع الإسرائيلي، وهو ليس مجتمعًا عنصريّا وحسب ولكن قوانينه أيضًا عنصرية. فعلى سبيل المثال، من الممنوع استئجار عربي للعمل في أرض يمتلكها الصندوق القومي اليهودي، وهذا يشكل ما يزيد على ٩٠٪ من الأرض. ومع هذا هناك من سكان الكيبوتسات من يريدون استئجار العرب، إما بسبب رخص العمالة العربية وإما حتى بسبب الشفقة، فيمنحون العرب حقهم الإنساني الطبيعي في العمل من أجل الرزق.

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

وبغض النظر عن الدوافع ، فإن القانون يحرِّم مثل هذا الفعل الإنساني ، ومن «يُضبط» متلبسًا بجريمة استئجار العربي ومنحه حقوقه يقدَّم للمحاكمة . فالنموذج الفعلي والقانوني هنا يجعل من العدالة مسألة عسيرة التحقيق على الفرد حتى لو أراد هو كفرد ذلك .

ولا يمكن القول بأن مجتمعاتنا العربية مجتمعات تراحمية خالصة ، فنموذج التعاقد والصراع يزحف وبسرعة نحو مجتمعاتنا ، ويسيطر علينا ، ولعله قد يحكم قبضته علينا خلال عدة سنوات . وإلا فبم نفسر كثيراً من ظواهر حياتنا ، وإجابة البعض على التعبير عن الأسف والاعتذار بقولتهم المشهورة : «وآسف دي أصرفها في أي بنك؟» . ولتجرب ولتذهب إلى إحدى المناطق السياحية لتعرف أن كل شيء له ثمن غير محدد . (سألت مرة صبيّا عن مكان كنت أبحث عنه ، فأخبرني عنه ثم طلب نصف جنيه ، رحمنا الله وإياكم!) .

ويتميز المجتمع الحديث التعاقدى بوحداته الكبيرة ، ولذلك فإدارته تتطلب معايير غير شخصية ومقاييس نمطية وعقود واضحة ، على عكس المجتمع التراحمى فهو عادة مجتمع وحداته صغيرة ولا يُدار من قبل الدولة مباشرة وإنما من خلال مؤسسات وسيطة مثل شيخ القبيلة أو كبير العائلة أو العمدة أو وجهاء المنطقة وهكذا . والعلاقات فى المجتمع التراحمى غير محددة المعالم ، فكل شخص -كما أسلفنا- يعرف الآخر ويتعامل معه على أساس هذه المعرفة الشخصية ، وليس على أساس عقد خارجى محدد .

وقد تعلمت فى طفولتى أننى حينما أذهب إلى عزبتنا فى الفرماوى للإشراف على جمع القطن (على سبيل المثال) ، فعلَيَ أن أركب الحمار وأسير بين الحقول ، وأن أحيى أى قروى يمر عليَّ وأقول «السلام عليكم» . وهذه مسألة مفهومة تمامًا فى إطار المجتمع التراحمى الصغير . ولكن حدث أنه حينما توثقت العلاقات بين مصر واليمن ، أن حضر إلى الإسكندرية مجموعة من الإخوة اليمنيين ، ويبدو أن هذه كانت أول مواجهة لهم مع المجتمع التعاقدى الكبير . ولذا حينما سار هؤلاء المساكين على الكورنيش بدءوا فى إقراء كل من مروا عليهم السلام ، والنتيجة أن نزهتهم على الكورنيش تحولت إلى عذاب مقيم إذ كان عليهم تحية ألف شخص ، خاصة وأن المصريين شعب متسامح ومتفاهم فكانوا يردون عليهم السلام بعد إبداء قليل من الدهشة!

Produced with scantopdf
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

والمجتمع التقليدى التراحمى مجتمع للكبار، الأطفال فيه رجال لم يكتمل نموهم، والقضية بالنسبة لهذا المجتمع هى كيف نجعل منهم رجالا (مثلنا) دون أى احترام لخصوصيتهم ودون بذل أى جهد لفهم عالم الأطفال. ويتصور أعضاء هذا المجتمع أن الأمور كلها يمكن أن تحسم بعلقة ساخنة، «اضرب الطفل ينصلح حاله تماما». فى مدرسة قرطسا الابتدائية، كان الأستاذ مشرقى ذو الوجه الأحمر والبنية الضخمة يعلمنا الحساب، وكان يتصور أنه حين ينهال بكل قوته على قفا التلميذ فإنه سيتعلم جدول الضرب والقسمة المطولة (كان عمرى آنذاك لا يتجاوز الثامنة)، وكان أهلى يرون أن هذا أسلوب جامع مانع فى التربية، والنتيجة أننى كرهت الرياضة والحساب، بسبب هذا المنهج التربوى السقيم، وحتى الآن لا أعرف القسمة المطولة!

ولا يفهم أعضاء المجتمع التقليدى خصوصية وفردية العلاقات الإنسانية المباشرة بين الصديق وصديقه، أو بين الرجل وزوجته، فالوحدة التحليلية الأساسية هى المجتمع، وتظل هي المجتمع فى كل المناسبات والمستويات. أنا طبعا أرى أن الإنسان كائن اجتماعى، وأنه لا وجود له خارج شبكة العلاقات الاجتماعية التى تحيط به، فهى التى تحدد هويته وتوقعاته إلى حد كبير؛ أقول «إلى حد كبير» عن عمد، لأننى أرى أن الفرد لابد من أن تكون له مساحته الخاصة، وإن اختفت هذه المساحة اختفت معها الخصوصية والإبداع، وسقط المجتمع فى الدائرية والتكرار. ولعل هذه الواقعة التى سمعتها فى طفولتى توضح ما أود أن أبينه. حينما بلغ أبى سن الزواج قررت أسرته أن تخطب له فتاة من عائلة الكاتب سمعوا أنها فى سن الزواج، وكان لابد من معاينة العروس (إذ لم يكن من المسموح للشاب أن يرى الفتاة التى سيتزوجها، ولذا على أمه أن تقوم بالمهمة نيابة عنه). وبعد أن استقر أعضاء الوفد المسيرى فى حجرة الصالون، وأفصحوا عن رغبتهم فى المعاينة، نبههم أهل البيت أنهم أخطئوا ودخلوا منزل آل حلبى بدلا من منزل الكاتب (المنزل المجاور). فأدرك أعضاء الوفد خطأهم ولكن بعد مداولات استمرت بضع دقائق قرروا أن منزلة آل الكاتب لا تختلف البتة عن منزلة آل حلبى، ومن ثم تقرر عدم الانتقال إلى منزل الكاتب، وسألوهم: هل عندكم شابة فى سن الزواج؟ فردوا بالإيجاب. وهكذا تم زواج أبى من أمى وأتيت أنا وأخوتى إلى هذا العالم نتيجة خطأ مطبعى، ففى المجتمع التراحمى لا يتزاوج الأفراد وإنما تتزاوج العائلات.

www.scantopdf.eu

البيع والشراء بين التراحم والتعاقد

يدور المجتمع التقليدي في إطار منظومة قيمية توزع الواجبات والحقوق بطريقة يؤدي الدين والعُرف فيها دوراً أساسيًا. ويُعدُّ النشاط الاقتصادي نشاطاً واحداً ضمن أنشطة إنسانية أخرى كثيرة، لا يتمتع هو فيها بالضرورة بالصدارة أو المركزية. بل إنني أزعم أنه كان يُنظر لعمليات المنافسة (لا المساومة) نظرة سلبية إلى حدٍّ ما. كنت ألاحظ أن كبار التجار في دمنهور يقضون يومهم في عقد الصفقات ويستخدمون كل الأسلحة اللفظية الممكنة (من إخفاء للحقائق، إلى تشويه جزئي لها، إلى إطلاق أغلظ الأيمان بطريقة يتصورون أنها غير ملزمة)، أي أنهم يدخلون في علاقات اقتصادية صراعية تعاقدية كاملة حيث يتربص الإنسان بأخيه الإنسان. ولكنهم بعد ذلك يتناولون طعام الغداء معًا إذ تنقلب الآية تمامًا وتنعكس الأدوار ويحل التراحم بدلاً من التعاقد. فبعد أن كان هم كل واحد منهم أن يُعظِّم أرباحه على حساب الآخرين، يصبح هم كل واحد منهم أن يظهر كرمه وأريحيته وينفق على الآخرين، ويلقي بأغلظ الأيمان (الصادقة هذه المرة) بأنه هو الذي سيدفع. ويبدو أن تناول الطعام معًا هو محاولة لتأكيد التراحم الإنساني وتضميد الجروح بعد أن قامت عملية البيع والشراء بتدمير الوشائج الإنسانية. وكأنهم يريدون أن يحيطوا العلاقة الصراعية التعاقدية بسياج قوي من التراحم.

ولا يختلف هذا كثيراً عما يُسمَّى في علم الأنثروبولوجيا بحلقة الكولا Kula : فجزر التروبرياند كانت تشكل حلقة يتاجر أهلها بعضهم مع بعض. ولكن عملية التبادل التجاري كانت تحاط بطقوس تراحمية ضخمة. إذ كان على التاجر أن يتزين لصديقه التاجر الآخر، حتى تسود المحبة وحتى يخفوا عملية التعاقد المدمرة. وكان التجار يتبادلون الهدايا وهي عبارة عن إسورة بيضاء، وعقود حمراء، فكان التاجر (أ) يعطي التاجر (ب) سواراً، وكان التاجر (ب) يعطي التاجر (أ) عقداً. وبذا كانت العقود والأساور تنتقل من تاجر لآخر عبر الأجيال. وكانت حركة العقود الدائرية تدور حسب عقارب الساعة، أما الأساور فكانت تدور عكس عقارب الساعة. وبرغم أن الجميع يعرف أن «الهدايا» سيتم استردادها، فإن المهم هو السياج الشعائري التراحمي الذي يحيط بالتعاقد.

أذكر أنه حينما نظَّم والدي أول أوكازيون في دمنهور ووزع الإعلانات عنه، أحس التجار في السوق بأن هذا أمر لا يليق، فالأرزاق بيد الله وتصعيد التنافس من شأنه أن

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

يؤدي إلى تصعيد الصراع وتضييق الرزق على صغار التجار. يجب على الإنسان أن يجلس في متجره ويأتي إليه العملاء لا أن يلاحقهم بإعلاناته. ولكنهم لم يكونوا يعرفون أنهم لحقوا بركب التقدم والحداثة والتعاقدية، أو أنه لحق بهم، وأن «الجيسيلشافت» قد بدأت تنشب أظافرها في «الجماينشافت».

وقد ذكرت من قبل سوق الاثنين، ويمكن أن أذكر هنا أن بقايا نظام المقايضة كان لا يزال سائدًا فيه، وكان لا يزال له أصداؤه في حديثنا اليومي. كنا - على سبيل المثال - إذا حلق أحدنا رأسه نسأله من قبيل الدعابة: «الفرخة باضت والا خبزتم»؟ أي هل دفعتم للحلاق بيضة دجاجة كأجرة له، أو دفعتم له رغيف خبز؟ ومهما كان الأمر، يمكنني القول إنني عشت في طفولتي حياة لا تؤدي النقود (أهم شكل من أشكال التبادل التعاقدي المجرد) دورًا أساسيًا فيها. كنت أذهب لعم بسيوني الذي يُحيك القمصان فأُخبره أنني ابن الحاج حصافي، فيسألني عن صحة الوالد وعن أخوالي. وكان ابنه يذهب إلى محل والدي ويخبره أنه ابن عم بسيوني فيأخذ ما يريد. وفي نهاية العام، يجتمع التجار ليصفوا حساباتهم. وأعني بهذا أن مجتمع دمنهور كان مجتمعًا تؤدي فيه النقود (المجردة) دورًا ثانويًا، على حين كان الاحتكاك البشري والتراحم يؤديان دورًا أكبر.

بل إن نشاطًا اقتصاديًا مثل البيع والشراء، لم يكن يُنظر له بحُسبانه نشاطًا اقتصاديًا خالصًا، فالالتزام بتعظيم الربح ليس نهائيًا يجُبُّ غيره من القيم. أذكر مرة أن دق جرس باب منزلنا ففتحته، فوجدت فتاة فائقة الحسن ترتدي فستانًا جميلاً للغاية (ولعلها إسقاطات فتى يافع من دمنهور) وتحمل قفصًا للغسيل أو الخبز وقالت: «هل تريدون شراءه؟» فتطوعت بأن أقول لا، لأنني كنت أعرف أن عندنا مثل هذا القفص. ولكني سمعت أمي تزجرني من الداخل وتأمرني ألا أتدخل فيما لا يعنيني. وأمرتني أن أعطيها مبلغًا كبيرًا من المال يفوق بمراحل ثمن القفص. وبعد ذلك، أدركت أن ما تم هو اسمًا عملية بيع وشراء تعاقدية، إلا أنه فعلاً لم يكن كذلك على الإطلاق. فالفتاة، هي من «أبناء الناس الطيبين» الذين إما فقدوا عائلهم وإما تدهورت أوضاعهم المالية لسبب أو لآخر. وكانت هذه هي الطريقة المحترمة التي يمكن بها أن تصل إليهم المعونة المالية دون خدش للحياء، أي أن التبادل التعاقدي هنا كان قشرة ظاهرة تغطي التراحم (الكامن)، الهدف منها أن تجعل الصدقة تبدو كما لو كانت عملية تبادل لا أكثر ولا أقل.

www.scantopdf.eu

وكثيراً ما كان بعض الباعة الجائلين يأتون ليعرضوا علينا سلعهم (في إطار تعاقدي) ثم يعقبون هذا بقصة عن سوء الأحوال وضرورة أن نشتري منهم (في إطار تراحمي). وكثيراً ما كنا «نشتري» منهم سلعهم (في كتاب وولدن **Walden** للكاتب الأمريكي هنري ديفيد ثورو Henry David Thoreau ترد واقعة مماثلة، إذ يأتيه أحد السكان الأصليين من الهنود الحمر ويعرض عليه بعض السلال، فحينما يرفض ثورو، يصيح فيه الهندي قائلاً: «هل تريدني أن أتضور جوعًا؟»).

وأسبقية الأخلاقي على الاقتصادي تظهر في طريقة تعامل التجار الواحد مع الآخر. فكلمة الشرف لها وزنها. كان هناك ولا شك تعامل بالشيكات والكمبيالات وإيصالات الأمانة، ولكن كلمة الشرف كانت هي المرجعية النهائية. ومع تزايد التعاقد في بلادنا تراجعت أهمية كلمة الشرف هذه. حينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٦٩، جاءني مهندس ديكور يسمَّى فاروق محرم، وكان ينتمي لهذا العالم التقليدي، ولكن بخلفيتي الأمريكية التعاقدية أصررت على كتابة عقد، وقد سايرني في هذا. وفي أثناء تأثيثه لشقتي كان يحرص على أن يقول مثلاً: «هذه الغرفة التي تكلف ألفي جنيه في بونتريمولي (على سبيل المثال) يمكنها أن تكلف خمسمائة جنيه فقط، لأن الرخام الذي فيها مكسور وملحوم بطريقة لن يلاحظها سوى خبير»، أو «هذه النجفة الكريستال الفاخرة لن تكلفك سوى ٨٠ جنيهًا لأن بعض الكريستال فيها لم يكن أصليًا!!». بعد عام سلمنا شقتنا بكل ما اتفقنا عليه من أثاث وسجاد ولم يأخذ إيصالاً ولم يسترد العقد، ثم ذهب إلى بلد عربي، ونشأت بيننا صداقة مستمرة حتى يومنا هذا.

وحينما عدت من الولايات المتحدة عام ١٩٧٩، حضر إليَّ مهندس ديكور شاب (ابن عم إحدى تلميذاتي وبناءً على توصيتها) ليساعدني على إعداد شقتي للسكنى. فأخبرته بالمبلغ الذي في حوزتي، فقال إنه يحتاج إلى ثلاثة أضعاف هذا المبلغ، فكان ردي أن هذا المبلغ هو كل ما عندي، ولابد من إعادة صياغة الشقة داخل هذه الحدود المالية. فوافق فأعطيته المبلغ كاملاً بكل براءة وبلاهة، ولم أكتب عقدًا ولم آخذ إيصالاً، استنادًا إلى تجربتي السابقة. فقام بخلع الشبابيك وهدم بعض الحوائط وكسر الأرضيات ثم رحل، وأخذ معه كل الاعتماد المخصص لتغيير الشقة. (ظهر فيما بعد أن هناك عددًا كبيرًا من مهندسي الديكور الجدد ذوى السمعة السيئة). ومن المؤسف أنني حاولت أن أسوي الأمر معه داخل الجامعة، ولكن انطلاقًا من مفهوم قبلي غير أخلاقي ضيق للغاية تضامن معه

www.scantopdf.eu

العميد ووكيل الكلية (وكانا من كبار الفنانين) وبدلاً من ردعه وتهذيبه أخذوا صفه تماماً، فاضطررت للجوء للنيابة الإدارية. فأحضروه، وحيث إنه كان مفلسًا اكتفيت بأن طلبت من السيدة وكيلة النيابة تقريعه وتعنيفه. . . إلخ، إذ لم يطاوعني قلبي أن أستمر في كل الإجراءات التي كان من الممكن أن تؤدي إلى حبسه.

وتداخل الأخلاقي مع الاقتصادي وعدم الالتزام بالتعاقد يظهران في هذه الواقعة: كنت مرة في سفاجة أريد استئجار تاكسي ليعود بي للغردقة، ولاحظت أن السائق يغالي في السعر فرفضت. فترك الفندق وعاد ومعه صديق ليخبرني أنه لم يعمل منذ ثلاثة أيام بسبب كساد سوق السياحة، وأن خسائره فادحة والصديق هو الشاهد على ذلك. فأخبرته أنه من المفروض، عملاً بقوانين الخصخصة والداروينية والعرض والطلب، أن أخفض السعر لا أن أزيده؛ فموقفه التفاوضي ضعيف، وعالم داروين لا يعرف التراحم. لم يفهم شيئًا مما أقول، وتذكرت أمي «وابنة الناس» الحسناء التي كانت تبيع لنا أشياء لا نريدها: **تذكرت أن التراحم** هو تراض إنساني بين البشر، وأن التعاقد هو تعاقد مادي بين أشياء أو بين بشر «تشيئوا». فقررت ألا أكون شيئًا أو «متشيئًا»، ودفعت له ما يريد.

وقد حدثت لي واقعة مماثلة في السعودية. يمكنني القول إنني لا أحب المساومة ولكني أعشقها لأنني أعرف أولاً أنها إحدى آليات السوق والمجتمع التقليدي، وثانيًا لأنها تخلق موقفًا من الصراع الهادئ (التدافع) يمكن مراقبة البشر فيه (قمت على سبيل المثال بعملية مساومة في البرتغال مستخدمًا القاموس ببراعة شديدة واستمتاع شديد. وقد تمت هذه العملية أمام حشد كبير من السياح الأمريكان الذين صفقوا كثيراً حين انتهيت من عملية المساومة). ذهبت ذات يوم إلى الديرة القديمة في الرياض، وهناك في أحد محال السجاد دخلت في مساومة حادة مع رجل عجوز، وبالفعل اشتريت منه سجادة ونسيت الهدف من المساومة، ودفعت له الثمن. ويبدو أنني من فرط استمتاعي بالمساومة نسيت السعر الذي توصلنا إليه ودفعت له الثمن الأعلى الذي كان قد طلبه في البداية. وبينما كنت أتجول في السوق، إذ بي أجد الرجل يبحث عني إلى أن وجدني وشرح لي الأمر، فأخبرته أنني نسيت الأمر تمامًا وأنني سعيد بالسجادة وثمنها، ومن هنا يمكنه أن يحتفظ بالمبلغ، ولكنه أصر على أن يعيد لي الفارق. وهنا قررت أن أجرب النموذج الكامن (الواضح لي والغامض بالنسبة له). فرفضت وأصررت على الرفض. لم يدر الرجل ماذا يفعل، ووقف حائراً: لو قبل النقود لأخل بأحد المواثيق، وهو ألا يدفع أحد ثمنًا أعلى مما تم

www.scantopdf.eu

الاتفاق عليه نتيجة المساومة. وحينما ازداد الرجل حيرة، قررت «الإفراج» عنه، وأخبرته أننا يمكننا أن نعيد المساومة مرة أخرى، وأن أدعه يهزمني في المساومة بحيث يحتفظ بالمبلغ كاملاً، فرفض تماماً مثل هذه الحيل. وبعد شد وجذب اقترحت عليه أن «نقسم البلد نصفين» وأن آخذ منه نصف المبلغ. فقبل شريطة أن أضع يدي في يده وأقرأ الفاتحة وأقول «الله يبيحك» ثلاث مرات (وهي تعني «الله يسامحك»، بمعنى أنني قد سامحته في الثمن الأعلى الذي حصل عليه). وحينما فعلت استراح الرجل ودفع لي المبلغ الذي اتفقنا عليه وذهب لحال سبيله.

وقد قمت بتجربة عكس ذلك على طول الخط، قمت فيها بدور الشرير، إذ كنت في مراكش في المغرب، أشتري بعض التحف والأشياء التراثية التي أجمعها في منزلي. وفي أثناء تجوالي سمعت كلمة «چوچ» تتكرر المرة تلو الأخرى. وحينما استفسرت عن معناها عرفت أنها تعني «زوج»، وكما قيل لي إنه كلما زاد عدد ما تشتريه من سلعة واحدة انخفض الثمن (كما هو الحال في كثير من الأسواق). وبدأت بخبث شديد أطلب سلعة وأسأل عن سعرها، فيخبرونني عنه. ثم أقول «جوج» فينخفض الثمن، ثم أزيد العدد إلى أن أصل به إلى ستة فينخفض الثمن وبحدة. وبعد أن يستقر الثمن كنت أدخل عنصراً حديثًا، جديداً تماماً عليهم، وهو زوجتي، إذ كنت أقول: «لقد ورطت نفسي؛ زوجتي ستقتلني إن اشتريت ستة من نفس الصنف». كانوا ينظرون إلى هذا «الرجل» الذي يخاف من زوجته، بل يعبِّر عن مخاوفه أمام الملإ في السوق. أين الرجولة؟ أين الكرامة؟ ولكنني في دور البورجوازي الماكر لم تكن هذه القيم التقليدية الزراعية البالية. ولذا كانت تنتابهم الحيرة، التي ينجم عنها الفشل الكامل في التعامل مع مثل هذا الموقف الحديث والجديد تماماً عليهم. حينئذ كنت أخبرهم أنني سأشتري واحدة فقط. ولم يكن أمامهم سبيل للعودة للسعر الأول. قضيت يومي في مراكش أشتري بهذه الطريقة حيث تقوم العقلية الصراعية التعاقدية بتقويض التراحم، بل توظفه!

كنا أنا وأسرتي نؤدي العمرة في مكة، وذهبنا بعدها إلى جدة لزيارة أختي. وقررنا أنا وابني أن نذهب لمحلات الأشياء القديمة، ودخلنا أحد المحلات ولم نجد شيئًا يعجبنا. وفي أثناء خروجنا أذَّن المغرب فأدينا الصلاة أمام المحل مع صاحبه. وبعد الصلاة تحدثنا معه، وحينما عرف أننا من مصر قدَّم لنا بعض الهدايا. فشكرته، ثم لمحت مرآة إيرانية جميلة، فقررت شراءها، فرفض الرجل لأنه ظن أنني سأشتري المرآة لأرد على هديته مما يحوِّل

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

الهدية إلى «دعاية». ولم يوافق على بيع المرآة إلا بعد أن أقسمت له بأغلظ الأيمان أن شرائي إياها لا علاقة له بهديته.

وفي عام ١٩٦٠ قمنا برحلة إلى وادي حلفا أنا وزوجتي وكنا قد تزوجنا لتونا، وكانت عروسة صغيرة للغاية. فكانوا يرحبون بنا في المحلات ويغمرونها بالهدايا احتفالاً بهذه المناسبة.

ويمكن أن أضرب مثلاً آخر باختلاط الاقتصادي بعناصر أخرى غير اقتصادية من تجربتي في دمنهور. إذ كنت ألاحظ أننا في دكان والدي كنا نبيع السلع للدماهرة بأسعار أقل من تلك التي يدفعها غير الدماهرة. فكون الإنسان دمنهوريًا، من بلدنا وعشيرتنا، هو أمر له وزنه في مجتمع تقليدي. وبطبيعة الحال كان أعضاء أسرتنا الممتدة يحصلون على أجود الأصناف بأزهد الأسعار. وقل موتوا أيها الأغيار بغيظكم.

وفي عصر الانفتاح، حينما بدأت تهيمن عقلية العرض والطلب، والشراء بأرخص الأسعار والبيع بأغلاها، أذكر أنني كنت أزور ابن خالتي في دمنهور، الذي استقبلني في منزله مرتديًا «البيچاما» (وهذا أمر ممجوج لإنسان أمسكت الحداثة بتلابيبه مثلي، برغم أن ارتداء البيچاما في الشارع كان من علامات الأبهة في دمنهور في طفولتي). المهم أننا قعدنا نتحدث وأخبرته أنه محاسب ويجيد الإنجليزية، وبالتالي لو انتقل إلى القاهرة أو حتى الإسكندرية لحقق أرباحًا طائلة في وظيفته الجديدة. وفوجئت به يرد عليَّ: «ومن سيرعى أبويَّ [مين حياخد باله من أبويا وأمي]». ذُهلتُ من بساطة الرد وبساطة الالتزام في مقابل حركية الإنسان الحديث الذي لا يعرف ثَوابت ولا أرضًا ولا قيمًا إلا قيمة الصراع والحراك الاجتماعي (وقد عرَّف أحدهم الحداثة بأنها مقدرة المرء أن يغيِّر قيمه بعد إشعار قصير The ability to change one's values at a short notice). ولذا نجد أن الإنسان الأمريكي، وهو قمة التعاقد والحداثة، يغيِّر منزله كل خمسة أعوام، بل ويحوله إلى سلعة تُباع وتُشترى.

كنت أزور بعض الأصدقاء المصريين في مدينة دالاس في ولاية تكساس. وعلى طريقة المصريين أكرمونا بشكل متطرف، فكنا ننام أنا وزوجتي في غرفة النوم الرئيسية وليس في غرفة الضيوف. وكان ملحقًا بغرفة النوم الرئيسية هذه حمام في غاية الجمال، وبدلاً من حائط البانيو كان هناك سورٌ زجاجيٌ يطل على حديقة يابانية مليئة بالأحجار والأشجار

www.scantopdf.eu

التي تتسم بجمالها الرصين الهادئ، محاطة بسور عال. أما الحمام نفسه، فحوائطه مزينة بعدد لا حصر له من المرايا. فكنت حينما آخذ الدُّش أنظر إلى الحديقة التي يتغيَّر شكلها حسب الوقت، ففي الصباح هناك الشمس الساطعة، وفي المساء هناك الأضواء الباهرة التي تغطي الأشجار. وتختلف التشكيلات اللونية والورقية باختلاف مصدر الضوء وقوته وضعفه. وفي المساء، كان يمكن تغيير الأضواء، فتُطفأ الأضواء الكشافة وتوقد الأضواء الخافتة الملونة. ونظراً لأنه لم يكن هناك ما أفعله في دالاس (فهي مدينة حديثة قبيحة لا يوجد فيها سوى مقاه واسعة وأماكن لشراء البضائع الغالية) كنت آخذ دشّا كل ثلاث ساعات، لأمارس تجربةً جمالية. وسألت مضيفيَّ لِمَ لا يفعلان الشيء نفسه، وفجأة اكتشفت أنهما لا يستخدمان حجرة النوم الرئيسية مطلقًا (ولذلك لا يقتربان من الحمام) لأنها أغلى ما في المنزل، وكانا يودان الحفاظ عليها في أحسن حال حتى يحسِّنا من ثمن المنزل حين تحين لحظة بيعه (كان ابنهما يستمع إلى حديثنا، فقال في براءة: «إن كنتم تنوون بيع البيت، فلِمَ اشتريتموه في المقام الأول؟». ولعله لم يكن قد فهم بعد مسألة المنزل/ السلعةَ). وعرفت من صديقي أن عليه أن يُنظِّف حديقته في عطلة نهاية الأسبوع، وأنه إن لم يفعل ثارت ثائرة جيرانه لأن هذا يُقلل من قيمة منازل المنطقة وبالتالي ما تضم من منازل/ سلع. وفي زيارة أخيرة لهما اكتشفت أنهما اشتريا بيتًا أكبر، فأشفقت عليهما، ولكنهما قالا لي: «إن النظام الضرائبي في الولايات المتحدة يجعل من الصعب على الإنسان أن يسكن في شقة أو منزل صغير، لأنه إن لم يدفع فوائد للبنك فإن دخله سيزداد، وبالتالي ستزداد الضرائب المفروضة عليه، أما إنْ اشترى منزلاً كبيراً فإن رهن المنزل يكون كبيراً وبالتالي الفائدة كبيرة، ويمكن بالتالي للمرء استقطاعها من ضرائبه (ولذا إن قطن إنسان في شقة فإنه يدفع ضرائب أعلى ممن يسكن في قصر منيف لأنه لن يدفع فوائد للبنك، وبالتالي لن يستقطعها من ضرائبه)». إن النظام الضرائبي بذلك يحول منزل الإنسان (أهم شيء في حياته الخاصة) إلى مجرد استثمار. وقال لي صديق آخر إنه حينما يصل أبناؤه إلى سن الرشد (١٨ عاماً في الولايات المتحدة) فإنه لا يتمتع بالإعفاء الضريبي الخاص بهم، ولذا يكون من صالحه المالي أن ينفصل أولاده عن الأسرة، ويقيموا في منازل خاصة بهم، وفي هذه الحالة يمكنهم هم أيضًا التمتع بالإعفاء الضريبي!

وتداخل النشاط الاقتصادي مع النشاطات الإنسانية الأخرى يظهر في مقدرة العمال المصريين مهما تقدموا في السن على اللعب في أثناء العمل أو بعده. ونفس التداخل بين

www.scantopdf.eu

الاقتصادي وغير الاقتصادي يتبدى في الجو الذي يسود في محل العمل، إذ نجد أنه تحيط به على الفور شبكة من العلاقات الإنسانية، كما أنه كثيراً ما يتبادل الموظفون والعمال النكات في أثناء أدائهم عملهم (وهذا طبعًا له جانبه المظلم، فهو يقلل من كفاءة الأداء أحيانًا. ولكني حينما أتذكر إحدى مساعداتي في الولايات المتحدة في أثناء كتابة الموسوعة أتراجع قليلاً عن معيار الكفاءة المطلقة هذا. كانت هذه المساعدة على درجة من الكفاءة لا يمكن تصورها [وسأضرب أمثلة على ذلك فيما بعد]. ولكن يبدو أنها سخّرت حياتها كلها في خدمة وظيفتها بحيث أصبحت آلة. حين كنت أتحدث معها وأذكر موضوعًا ما بشكل عابر، كانت تبدأ في إعطائي معلومات عنه، وكنت أفشل تمامًا في أن أوقفها أو أن أوضح لها أنني في واقع الأمر غير مهتم بالموضوع. ولكنها كانت في كفاءة الكومبيوتر وفي آليته، ولذا كانت لا تتوقف قط).

حروبي الخاصة ضد المؤسسات

من وُلدَ في مجتمع تقليدي يضيق ذرعًا بالمؤسسات اللاشخصية، فالمجتمع التقليدي مكوَّن من شبكة واسعة من العلاقات العائلية وعلاقات الجيرة. ولذا - كما أسلفت - لا يتعامل الإنسان إلا مع من يعرفهم ومن يعرفونه، حتى في المدرسة كان الفصل انعكاسًا لهذا المجتمع. أما «المؤسسات» في دمنهور فكانت مؤسسات في معظمها أهلية لا علاقة لها بالحكومة، يشرف عليها أناس من أهل دمنهور، ويتحكم فيها الناس (مثل جمعية البر بالفقراء - جمعية تحفيظ القرآن - الأوقاف)، فهي أقرب إلى ما يسمَّى الآن «مؤسسات المجتمع المدني»، أما المؤسسة بالمعنى الحديث (كيان لا شخصي، خاضع لقوانينه وإجراءاته الخاصة، وليس له مرجعية إنسانية أو أخلاقية أو دينية) فهو أمر لم يكن معروفًا في دمنهور التي نشأت فيها. ولعل تنشئتي التقليدية جعلتني أرى أن المعايير الأخلاقية لا تنطبق إلا على الأفراد وحسب، أما المؤسسات فهي شخصيات مجردة لا شخصية، لا تهتم بالأفراد أو الأخلاق، وتتحرك كالوحش الكاسر أو كقوة من قوى الطبيعة، تحطم كل ما يأتي في طريقها. فالمقدرة على الاستمرار والبقاء هي القيمة المطلقة الوحيدة بالنسبة لها والتي تجبُّ أي حسبانات إنسانية وأخلاقية.

وحينما انتقلت من دمنهور إلى الإسكندرية كانت صدمة حقيقية لي، فهذا عالم جديد

www.scantopdf.eu

عليّ، إيطالي/ يوناني/ غربي، يتحدث الإنجليزية والفرنسية واليونانية والإيطالية، غير معروف لي وأنا غير معروف له. وقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب كان هو الآخر تجربة غير مألوفة لي (كما سأبين فيما بعد). ومع هذا كانت الإسكندرية مدينة صغيرة، وكان قسم اللغة الإنجليزية هو الآخر صغيراً، لا يجاوزان مقدرات الإنسان ولا خياله ولا حواسه. ولذا كان من الممكن تجاوز الصدمة بعد وقت معقول.

وحين تخرجت في جامعة الإسكندرية، فوجئت بأن كل البعثات كانت تُمنح لخريجي جامعة القاهرة وعين شمس، ونُحرم نحن منها في الإسكندرية. إلى أن نبهني أستاذ صديق من جامعة عين شمس أن إحدى خريجات جامعته حصلت على بعثة جامعة الإسكندرية وأن مجموعها الكلي أقل مني بحوالي ٢٠ درجة. وبعد أن استقصيت الأمر اكتشفت أن قسم الامتياز أُلغي من جامعة الإسكندرية ولم يُلغ من الجامعات الأخرى، وأنه بعد أن كانت بعثات كل جامعة مقصورة على خريجيها تم تركيزها في إدارة البعثات، التي عادةً ما تضع خريجي أقسام الامتياز في المقدمة. فتقدمت بشكوى لإدارة البعثات لأوضح أن قسم الامتياز ألغي أصلاً من الإسكندرية، وأن استمرار الوضع الحالي يعني أن خريجي الإسكندرية سيُحرمون من البعثات. فقال لي مدير إدارة البعثات إنه لا حول له ولا قوة ولابد من استخراج حكم من مجلس الدولة. وحتى يصدر الحكم لصالحي لابد من استصدار قرار من المجلس الأعلى للجامعات يبين أن الليسانس العادية من جامعة الإسكندرية تعادل الليسانس الممتازة من جامعتي القاهرة وعين شمس. فقضيت عدة شهور في الانتقال من الإسكندرية إلى القاهرة لجمع الأوراق اللازمة ثم قدمتها للمجلس الأعلى للجامعات واستصدرت القرار وأخذته لمجلس الدولة، الذي أصدر حكمًا لصالحي. فأخذت الحكم وذهبت لإدارة البعثات لتنفيذه. ولكني وجدت مديراً جديداً، من البحيرة، أي «بلدياتي»، صديق حميم لعمي، فاستبشرت خيراً وأعطيته حكم مجلس الدولة. وإذ بي أفاجأ بأنه يرفض تنفيذ الحكم. وسألته في براءة لمَ؟ فقال إنه لا يحب أن يغير الإجراءات. كدت أبكي من فرط الحزن. ولكن لم تفتر عزيمتي واستمرت حربي ضد المؤسسات. وكان لي أصدقاء كثيرون يعملون في الصحافة، فطلبت منهم أن ينشروا تفاصيل القضية وحكم مجلس الدولة في الصحف، ففعلوا. فوجدت وزارة التعليم العالي نفسها موضعًا للتشهير الذي يستند إلى حقائق. وفي ذلك الوقت اجتمعت اللجنة العليا للبعثات، وكانت قد أثيرت قضية حول آخر بعثة تقدمت لها، وكانت بعثة خاصة

www.scantopdf.eu

بكلية البنات، وكان من المفروض أن تكون مقصورة على الإناث، ولكنهم نسوا أن يكتبوا هذا الشرط في الإعلان. المهم، حتى ينهوا القضية تغاضوا عن الشرط وتقرر أن أُمنح بعثة كلية البنات وسافرت بالفعل إلى الخارج. وقد استغرقت هذه الحرب ثلاث سنوات من تاريخ تخرجي عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٦٢. وقد قابلت الدكتور أبا الوفا التفتازاني - رحمه الله - وكان عضواً بلجنة البعثات العليا، فأخبرني بما حدث داخل اللجنة، وأنه كان له فضل كبير في إقناعهم بمنحي البعثة.

وحين انتقلت إلى نيويورك، حدثت هناك أول مواجهة حقيقية وشرسة بيني وبين إحدى المؤسسات، وذلك حين ذهبت للدراسة بمنحة من مؤسسة فولبرايت (تغطي السنة الأولى، أما بقية السنوات فكانت بعثة حكومية). وصل إليّ في القاهرة، قبل سفري، كتيب إرشادي من جامعة كولومبيا يتحدث عن كل كبيرة وصغيرة، بما في ذلك الرياح القوية التي قد تهب علينا في الويست سايد درايف (الكورنيش الذي يطل على نهر الهدسون). ومن هنا اقترحوا عليّ أن ترتدي زوجتي إيشاربًا حتى لا تتأثر الطريقة التي صففت بها شعرها. انبهرنا بهذا النظام الدقيق، خصوصًا وأنهم أخبرونا أن لجنة الضيافة سترسل شخصًا ليكون في استقبال شخصي الضعيف. ولكن حين وصلتُ إلى مطار نيويورك (وهو سيرك إنساني ضخم) لم يكن هناك من يستقبلني. فتوكلت على الله وذهبت للاستعلامات لأسألهم عن طريقة الوصول إلى مدينة نيويورك فقالوا عليك أن تأخذ الأتوبيس حتى بورت أثورتي Port Authority. وقمت بترجمة هذا إلى «ميناء السلطة" أو «سلطة الميناء». فاحترت وطلبت منهم إيضاحًا، ولكن في نيويورك هذا يعطل النظام الآلي، ولذا تجاهلوني تمامًا. وبعد أن سألت سائق تاكسي عرفت أنها Port Authority Bus Terminal، أي محطة الأتوبيس الأخيرة (آخر الخط)، وأن «بورت أوثورتي» هذه تشير إلى هيئة الأتوبيسات. فأخذت الأتوبيس وقضيت ليلتي في أحد فنادق الدرجة الألف. وفي اليوم التالي أخذت تاكسي وتوجهت إلى القنصلية المصرية، ودفعت ما سجله العداد، فنزل السائق وأمسك بتلابيبي قائلاً إن عليّ أن أدفع بقشيشًا، فدفعت له ما يريد (وهذا أمر غير مألوف ولكنه حظي العاثر).

توجهت بعد ذلك لمؤسسة فولبرايت واستقبلني أمريكي من أصل فلبيني يسمّى مستر فليشيانو وأطلق عبارات الترحيب والمودة بغزارة غير عادية. وحيث إنه لم يكن هناك ما يضطره لكل هذه المودة، صدقته. وتصورت أنني وجدت شيئًا من التراحم في المدينة التي

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

لا ترحم. ولكن حينما قررت زوجتي استكمال دراستها ذهبت إلى مستر فليشيانو هذا لأسأله عن إحدى الجامعات في نيويورك يمكن لزوجتي الالتحاق بها، فأخبرني ببرود شديد (يتناقض مع المودة الدفاقة في الزيارة الأولى) أن هذا ليس من تخصصه، وأرسلني إلى سيدة أمريكية أخبرتني بكل أدب وبابتسامة ثلجية أن هذا ليس من اختصاص المؤسسة، فالمؤسسة تشرف عليّ وحدي. حاولت أن أبيِّن لها أنني لا أطلب عونًا ماليًّا ولا حتى إشرافًا دائمًا، وكل ما أطلبه هو النصح والمشورة، فجاءتني الابتسامة الثلجية مرة أخرى مع الرفض الصارم الرقيق!

وكنت أقوم مرة بزيارة روتينية لمؤسسة فورد، ولكني فوجئت بأن كل الموظفين غادروا المبنى في منتصف النهار (لسبب لا أعرفه) دون أن ينبهني أحد لذلك، ووجدت نفسي وحيدًا في مبنى شاهق. حاولت الخروج منه ولم أنجح إلا بعد عدة محاولات. ولكنني من فرط غيظي أمسكت بالأقلام والأوراق الموجودة على بعض المكاتب وألقيت بها على الأرض وعدت إلى منزلي وأنا أرتجف من الغيظ والخوف.

وقد حملت زوجتي في أثناء وجودنا في نيويورك، فذهبت إلى مبنى مرشد الطلبة الأجانب في جامعة كولومبيا، وكان مليئًا بالموظفين الذين كانت مهمتهم الوحيدة مساعدتنا (حسبما قيل لنا). فذهبت إلى هناك لأسأل عن أسماء مستشفيات رخيصة، فما كان منهم إلا أن أخبروني بأن كل المستشفيات باهظة التكاليف وأن الحل الوحيد بالنسبة لي هو أن أتسول! كاد يُغشى علي من هول الصدمة، ولكن لم أستسلم وأخذت أمر على المستشفيات واحدة تلو الأخرى، إلى أن اكتشفت مستشفى جبل سيناء، وهو مستشفى فاخر للغاية، وكان قد فتح لتوه قسمًا لمحدودي الدخل يدفعون حسب دخولهم.

ثم ذهبت إلى جامعة رتجرز. وقد قيل لي إن قسم اللغة الإنجليزية فيها قسم صغير يمكن التعامل مع من فيه بطريقة إنسانية شخصية. وحين حان الوقت لتحديد التخصصات المختلفة للامتحان الذي يسبق كتابة رسالة الدكتوراه (خمسة حقول مختلفة من الأدب، على أن يتم اختيارها من خمسة أقسام مختلفة يحتوي الأول منها على الأدب الأنجلو ساكسوني أو أدب العصور الوسطى، ويحتوي الأخير منها على الأدب الإنجليزي الحديث أو الأدب الأمريكي). حاولت أن آخذ التخصصين الأخيرين برغم أنهما يقعان في قسم واحد بدلاً من دراسة أدب العصور الوسطى (على الرغم من صعوبة دراسة

www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

الأدب الإنجليزي الحديث بالنسبة لدراسة أدب العصور الوسطى). وكنت أعلم أنه قد تمت الموافقة على فتح باب الاختيار على مصراعيه للطلبة في مجلس القسم، ولكن مجلس الكلية لم يكن قد وافق على هذا القرار بعد. ومع هذا رُفض طلبي، وعبثًا حاولت أن أشرح للأستاذ المشرف وجهة نظري، وهي أن تخصص طالب مصري في الأدب الإنجليزي الحديث بدلاً من العصور الوسطى، أمر مفيد لكل من الحضارتين الأمريكية والعربية، كما أشرت إلى أن ما أطلبه قد تمت الموافقة الفعلية عليه في مجلس القسم، وأن المسألة مسألة وقت قبل أن يصبح قانونًا. ولكن هيهات، فاللوائح لوائح، «وأنت كنت تعرفها يا مستر مسيري حينما حضرت إلى هنا»، كما قال لي الأستاذ المشرف.

ويجب أن أذكر هذه الواقعة من حياتي التي أسميها «حربي الخاصة ضد الرأسمالية العالمية». ففي عام ١٩٦٩، كنت في طريقي من الولايات المتحدة إلى مصر. وذهبت إلى مندوب أمريكان إكسبريس، الذي كان مشرفًا على إجراءات عودتي أنا وأسرتي. وكان أمامي خياران: أولهما العودة بعابرة المحيطات كريستوفرو كولومبو، وكانت رحلة مترفة وجميلة للغاية، وأنا أحب السفر المترف، شأني شأن معظم البشر. ولا أجد غضاضة في أن يتمتع الإنسان بالبذخ الزائد من آونة لأخرى، وأن يتمتع بهذه الحالة، شريطة أن يكون واعيًا بأنها مرحلة مؤقتة، وألا يتصور أن الحياة كلها لحظات ترف وبذخ.

كان هذا هو الخيار الأول لرحلة العودة. أما الخيار الثاني، فكان هو السفر بالطائرة، وهي رحلة سريعة وعادية وعملية. وبالطبع كنت أفضِّل الرحلة بالسفينة، وخصوصًا أن كتبي، أهم مقتنياتي، بحُسبانها الأدوات التي سأستخدمها في عملية التدريس والبحث العلمي، ستكون معي إن سافرت بالباخرة، ولن تصل بعدي. ولكن المشكلة الوحيدة التي واجهتني في العودة بعابرة المحيطات هي أنني كنت سأتوقف في نابولي وأترك أمتعتي لمدة أربعة شهور أقوم خلالها برحلة عبر أوربا (نزور فيها إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وهولندا وألمانيا والنمسا وأخيرًا إيطاليا مرةً أخرى). وكنت أخشى تكلفة تخزين هذه الأمتعة طيلة هذه المدة. وأخبرت مندوب أمريكان إكسبريس بمخاوفي. بل عرضت عليه أن يتصل تليفونيًا بميناء نابولي على نفقتي الخاصة ليستفسر عن التكلفة. فأكد لي أن التخزين سيكلفنا بضعة سنتات لا أكثر ولا أقل. وكانت لهجته يقينية بشكل لا يدع مجالاً للشك. فتوكلنا على الله وركبنا عابرة المحيط الإيطالية كريستوفرو كولومبو. وكانت الرحلة

www.scantopdf.eu

بالفعل مترفة بشكل رائع، بل بشكل بذيء: فيلم سينمائي كل يوم - إفطار فاخر - غداء فاخر - تناول الشاي الساعة الخامسة على صوت الموسيقى - عشاء فاخر - حجرة خاصة للأطفال.. وهكذا.

ولكن حينما وصلنا إلى نابولي، اكتشفت أن التخزين مكلف للغاية، وأنه سيكلفني أكثر من تكاليف الرحلة التي كنت أنوي القيام بها عبر أوربا، فسقط في يدي ووقفت لا أدري ماذا أفعل. وحينئذ رآني أحد الحمالين، وبمساعدة قاموس إنجليزي - إيطالي وعن طريق معرفتي باللاتينية (كنت آخذ الكلمات اللاتينية وأحذف نهايتها، فكانت تصبح إيطالية في معظم الأحيان)، أفهمته وضعي. فقام بشرحه بدوره لموظف التخزين، وقررا أن يغيِّرا في الوزن وبدلاً من أن تكون تكاليف التخزين مائة دولار في اليوم أصبحت عشرة دولارات فقط، وهو سعر معقول (ومع هذا، فإنه مضروبًا في ١٢٠ يوماً يرتفع مبلغه، ليصبح مبلغًا محترمًا في الستينيات، بل وثروة صغيرة بالنسبة لطالب بعثة وزوجته). وكتبت لشركة أمريكان إكسبريس بما حدث، فكشرت عن أنيابها التعاقدية، وأخبرتني بأنها ليس لديها ما تفعله!

درست بوليصة التأمين طيلة أربعة الشهور التي قضيتها في أوربا (في الرحلة التي أنفقت فيها معظم مدخراتي وتمتعت بمشاهدة متاحف أوربا وآثارها) فاكتشفت أن التأمين يغطيني «من الباب للباب from door to door». وعند عودتي لمصر وجدت أن الثلاجة التي أحضرناها من الولايات المتحدة قد أصيبت بضربة في جانبها. فكتبت لشركة التأمين أطلب تعويضًا، فكتبت لي الشركة قائلة إن تأميني يغطي الـ total loss أي الخسارة الكاملة وليس الـ partial loss أي الخسارة الجزئية، وهو تمييز يصعب على إنسان غير مدرب على اللغة القانونية (مثلي) أن يستوعبه. فاستشطت غضبًا وحسبت ما خسرت سواء من جراء تخزين أمتعتي في نابولي، أم من جراء العطب الذي أصاب الثلاجة، وأبلغت قسم شرطة سابا باشا عن فقدان أحد الأجهزة الكهربائية الأخرى (وكان ثمنه يعادل تمامًا كل ما خسرت). وأرسلت صورة من المحضر لشركة أمريكان إكسبريس. فطلبوا مني ترجمته باللغة الإنجليزية، فرفضت قائلاً إن شركة في حجمهم يمكنها ترجمة المحضر. وبالفعل بعد شهرين أو ثلاثة وصل إليَّ منهم شيك بالمبلغ الذي عوضني عما فقدت من مال سواء بسبب التخزين أم نتيجة لتلف الثلاجة. وهكذا كسبت «حربي الخاصة ضد الرأسمالية العالمية».

www.scantopdf.eu

ومن القصص الأخرى الطريفة في حربي ضد المؤسسات، حكايتي مع بلدية مدينة فيش كيل Fish Kill وهي مدينة صغيرة أمريكية في ولاية نيويورك. وكثير من هذه المدن تحاول أن تحقق دخلاً بأي شكل تمول به أوجه الإنفاق المختلفة من رواتب الموظفين إلى المكتبة المحلية. وتلجأ هذه المدن أحيانًا للتحايل لتدبير الاعتمادات اللازمة، ومن بين أشكال التحايل أن يوضع رادار لقياس سرعة السيارات في منطقة جبلية منحدرة تقع خارج المدينة ولكنها تتبعها إداريًا. وبما أن التحكم في السرعة في مثل هذه المنطقة مسألة صعبة للغاية. وبما أنهم يضعون الرادار عند قاعدة المنحدر، فإن الكثيرين يجدون أنفسهم مرتكبين لجريمة مخالفة السرعة مع أنها مخالفة استمرت بضع دقائق أو ثوان. ويضطر السائق مرتكب الجريمة إلى دفع الغرامة لمدينة فيش كيل. وهذا ما حدث لي عام ١٩٧٦. فقررت أنا الآخر أن أتحايل، وكتبت لهم خطابًا على الورق الرسمي لوفد الجامعة العربية لهيئة الأمم (حيث كنت أعمل مستشارًا ثقافيًا) أخبرهم فيه بأنني لم أذهب ألبتة لمدينة فيش كيل هذه، فكيف يمكن أن أكون قد ارتكبت مخالفة مرورية فيها؟ وقد كتبت الخطاب بأسلوب إنجليزي راق، وختمته بقولي إنني قد أضطر لإبلاغ حكومتي، وأن هذا قد يسبب أزمة دبلوماسية بين بلدينا (وهذه طبعًا أكاذيب، فأنا لم أكن دبلوماسيًا، كما أنني لا أعتقد أن واقعة مثل هذه يمكن أن تؤدي إلى أزمة بين مصر والولايات المتحدة أو حتى جمهورية لوكسمبورج!). ولكن الخطاب أتى بمفعوله. فمن الواضح أن مجلس مدينة فيش كيل أصيب بالهلع، إذ وصلني خطاب طُبع على ورق خاص يعتذرون فيه لما بدر منهم، ويوضحون مسألة أن المنطقة التي وقعت فيها المخالفة تابعة إداريًا لهم، وأرسلوا لي نموذجًا أوقعه حتى يمكن إسقاط المخالفة على الفور! وقد فعلت بطبيعة الحال، ولم تحدث الأزمة الدبلوماسية التي هددتهم بها.

وحربي الخاصة ضد المؤسسات وضد الرأسمالية العالمية مسألة مستمرة. فعلى سبيل المثال اشتريت بلوفر من الولايات المتحدة، وإذ بي أجد فيه ثقبًا بعد ارتدائه بعدة أيام، فاستمررت في ارتدائه طيلة عمره الافتراضي، وحينما كان يسألني أحد عن الثقب، كنت أشرح لهم نظريتي عن محاولة الثأر من الاحتكارات الرأسمالية. وتتبدى هذه الحرب الضروس في أنني حين أشتري جوارب فإنني أشتري ثلاثة من نفس اللون، ومن هنا إن فقدت «فردة شراب» أو إن اهترأت، فإنه يمكن تعويضها من الجوارب الأخرى. (ويعلم الله أن هذا ليس بخلاً دمنهوريًا، وإنما هو تأكيد كوميدي لفرديتي ومقدرتي على الحرب ضد المؤسسات، كما أنه تعبير عن وعيي البيئي الذي أشرت له من قبل).

www.scantopdf.eu

وحينما عدت عام ١٩٧٩ من الولايات المتحدة، كان جو التطبيع قد بدأ فى السيطرة على مصر. وعرض على الأستاذ هيكل أن أذهب معه إلى إيران لمقابلة آية الله الخومينى، وإجراء حوار معه. وحينما طلبت إذنًا من الجامعة، رفض طلبى، إذ كان مدير الجامعة آنذاك يعرف عن ميولى السياسية التى لم تكن تتفق مع توجهات النظام الحاكم آنذاك. ولكن عندما حان موعد تجديد جواز السفر الخاص بى، فوجئت أنه لا يذكر وظيفتى، وأنه كان بإمكانى السفر دون استئذان من «جهة العمل». وأن هذه كانت فرصة ذهبية ضيعتها، ولا داعى لأن أضيعها مرة أخرى. وقررت استغلال جو الانفتاح عام ١٩٨٢ لحل هذه المشكلة؛ فارتديت بلوفر برقبة وارتديت بيريه ووضعت بايب فى فمى وذهبت مباشرة إلى شباك تجديد الجوازات، وطلبت تجديد الجواز بلغة خليط من العربية والإنجليزية. وحيث إن الجواز كان قد صدر فى نيويورك أخبرت الموظف المسئول أننى مصرى مقيم فى نيويورك، وبلهجة آمرة طلبت منه الإسراع فى تجديد الجواز لأننى لا يوجد عندى متسع من الوقت. فأجاب الموظف قائلا: «أوكى أوكى». ثم جدد الجواز لمدة خمس سنوات تمتعت إبانها بحرية التنقل. (كانت درجة التغريب قد وصلت إلى درجات مخزية فى هذه الفترة، حتى إن مذيعات التليفزيون كن يصطنعن لكنة أجنبية ولغة عربية مكسرة تماماً. وحينما عدنا من الولايات المتحدة، كان أولادنا يتحدثون بطريقة خوجاتى، فأحضرنا لهم مدرسين فى اللغة العربية والدين، فحذرتنا فاطمة، التى كانت تعمل عندنا، من أن «ياسر» سيتحدث مثلنا بعد قليل، مما يعنى أنه سيفقد ميزة أنه خواجة... فى عصر الانفتاح!).

ولكن الحظ لم يكن حليفي دائمًا في حربي ضد المؤسسات، إذ إن الاحتكارات كثيراً ما كانت تطحنني. فعندما استأجرت سيارة قبل عودتي من الولايات المتحدة عام ١٩٧٩. قرأت إعلانًا مفاده أن إيجار السيارة سيكلفني كذا دولاراً في اليوم. ووجدت المبلغ معقولاً. ولكني حينما ذهبت لتسليم السيارة وجدت فاتورة طويلة عريضة عن بنود لم تطرأ لي على بال، فأديتها صاغراً. وحينما صُدمت عربتي الفولكس وهي واقفة أمام عيادة الطبيب (الذي كنت في زيارة له مع أحد أبنائي)، لم يأت مندوب شركة التأمين إلا بعد عدة أسابيع، مما كان يعني وقف حالنا تمامًا، فالحياة بدون سيارة في ضواحي أمريكا، مثل الحياة دون حذاء، أو حتى أقدام في القاهرة. وحينما حضر المندوب أخيراً نظر إلى

www.scantopdf.eu

سيارتنا باحتقار شديد، وظل يخفض ثمنها إلى أن أصبح ٢٠٠ دولار، ثم اكتشف أنني لصقت وردة بلاستيك على بابها، فخفض الثمن إلى ١٠٠ دولار بحُسبان أن هذه الوردة قد أضرت بطلاء السيارة، وأن إعادة طلائها سيتكلف على الأقل ١٠٠ دولار. وبطبيعة الحال يطرح السؤال نفسه: لو كان ثمن السيارة هو حقّا ١٠٠ دولار، فلم كانت الشركة تتقاضى ٥٠٠ دولار تأمينًا عليها؟ ولكنه حكم القوي على الضعيف، وحكم الشركات الكبرى على الفرد الأعزل، لأن الشكوى كانت تعني رفع قضية، والقضية تعني محاميًا، والمحامي يتقاضى مئات الدولارات. أما الشركة فهي دائمًا عندها طاقم من المحامين، جاهز دائمًا للدفاع عن «مصالحها».

وقد امتدت ظاهرة المؤسسات اللاشخصية إلى عالمنا العربي (فهي جزء من عملية التحديث). وقد أخذت المشكلة شكلاً خاصًا في مصر بالذات، بسبب وجود التراث البيروقراطي الطويل. فعلى سبيل المثال وصل إليَّ مرة خطاب يُطلب مني فيه دفع غرامة قيمتها ٧٥ جنيهًا وإلا تم الحجز عليّ، دون أن تُبيِّن نوعية المخالفة. فأهملت الأمر بعض الوقت ولكني فوجئت بإجراءات الحجز، فذهبت وأخبرت الموظف المختص أنني على أتم استعداد للدفع لو أنني عرفت السبب، فلم يتمكن من معرفة السبب، ومع هذا أصر على الدفع، ففعلت صاغرًا.

ومغامراتي مع شركة مصر للطيران كثيرة. كنت في عمَّان في طريقي من السعودية إلى القاهرة، وكانت هذه الطائرة تنتظر الطائرة المصرية من بغداد لتحمل ركابها المصريين. ولكن يبدو أن عدد المسافرين كان صغيرًا، فجاء مدير المحطة، وكان فرعونًا صغيرًا، وقال إن الطائرة لن تحضر من القاهرة وإن علينا الانتظار للغد. وأشار بطرف أصابعه إلى كراسي المطار وقال يمكنكم النوم عليها. فذهبت له وقلت: إن هناك قوانين عالمية تنظم هذه العملية، وإن عليه أن يحجز لنا في أحد الفنادق إن كان يريد أن ننتظر طائرة الصباح. فقال إن ثمن التذكرة لا يغطي ثمن الفندق، فأخبرته أن هذه هي مشكلته وليست مشكلتي. وحينما رفض أن يسلك حسبما يفرضه القانون، طلبت من كل المسافرين أن يوقعوا على عريضة شكوى وأن يكتب كل شخص رقم جواز سفره إلى جوار توقيعه. وأخبرته أنه إن لم يحجز لنا في الفندق فسأشكوه لهيئة الطيران العالمية المختصة. وبقدرة قادر تحول الفرعون الصغير إلى «مهرج» مذعور وجلس يسترضيني، وأمر للمسافرين بعشاء مجاني، ثم اتصل بالقاهرة فأرسلوا الطائرة!

www.scantopdf.eu

ومرة أخرى، كنت أيضًا في عمّان وقررت شركة مصر للطيران أن ترسل طائرة صغيرة بدلاً من الإير باص air bus مما كان يعني أن نصف الركاب سيبقون في عمان لليوم التالي على الرغم من أنهم حجزوا تذاكر على شركة مصر للطيران. وكان لابد أن أقضي الليلة مع ابني. وتحركت بسرعة وذهبت إلى الدرجة الأولى وحجزت تذكرة. وحين وصلت إلى القاهرة، أرسلت شكوى لمدير الشركة أخبره فيها أن القانون المنظم لحركة الطيران يرى أنه إذا كان هناك مكان في الدرجة الأولى، فلابد أن يعطى لراكب الدرجة الثانية إن لم توفر له الشركة مقعدًا؛ وبناءً عليه لابد أن أستعيد ما دفعت من نقود. وقد كان. ولاحظت أن موظفي الشركة كانوا فرحين بهذا التصرف، وأخبرني أحدهم: «لو فعل الجميع ذلك، لما ارتكبت شركة مصر للطيران مثل هذه الحماقات».

وأخيرًا كادت المؤسسة تطحنني في بعض المواجهات معها. كنت في السعودية أريد تجديد رخصة القيادة. وحين ذهبت لأفعل ذلك، وجدت هناك المئات أمام شباك التجديد، لا يقفون في طابور. فعرفت أنني سأضطر للتغيب عن المحاضرات عدة مرات إن أردت تجديد الرخصة، مما يعني أنني أختار بين شرين (وليس بين الخير والشر): إما أن أتغيَّب عن المحاضرات وإما أن أغيِّر الرخصة بنفسي. وأخذت ما تصورت أنه أهون الشرين، فذهبت إلى المنزل وغيَّرت تاريخ الرخصة بنفسي، وصورتها، لأن التغيير لا يتضح في الصورة. وحينما انتهى تاريخ هذه الرخصة، حاولت مرة أخرى تجديدها بشكل رسمي، دون جدوى؛ فجددتها لنفسي كما فعلت أول مرة بأن وضعتها في الماء هذه المرة ومسحت التاريخ بيدي. وتصادف أنني ارتكبت مخالفة مرورية بسيطة فطلب مني الضابط الرخصة، فأعطيته إياها. فلاحظ على الفور أن هناك تلاعبًا ما. فطلب مني أن أركب معه سيارته، تمهيدًا لترحيلي إلى السجن بتهمة التزييف (وهي تهمة خطيرة). وبدأت في السيارة عملية «المساومة»، فأخبرته أن التاريخ المطموس غير معروف، ومن هنا لا نعرف هل الرخصة نافذة المفعول أم انتهت مدة صلاحيتها. ثم أخبرته أنني أستاذ جامعي وأن القبض عليّ دون سبب واضح ليس أمرًا هينًا. ومما ساعد على دعم موقفي، أن أحد المقبوض عليهم كان من أحد قرائي (وكنت أكتب آنذاك في جريدة الرياض) وتناقشنا - في سيارة الشرطة - في ترجمة معروف الدواليبي لأعمال دوستويفسكي. وكان الضابط يفرج عن المتهمين الذين يعترفون بجرمهم (لأنه، انطلاقًا من قيمه التقليدية، كان يبحث عن الصدق لا النظام). وأفرج عن كل المعتقلين إلا إياي. وفجأة تذكرت أن

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu

عندي صورة من الرخصة في منزلي، فأخبرته أن الصورة ستبين التاريخ الحقيقي لرخصتي. وبعد شد وجذب وافق على أن يصحبني إلى منزلي (بسيارة الشرطة) ليرى صورة الرخصة (التي لم يكن يعرف أنها صورة لرخصة مزيفة). وكانت هذه مخاطرة حقيقية، فالعثور على مثل هذه الورقة بين أوراقي مسألة شبه مستحيلة. ولكنني فوضت أمري إلى الله، إذ كانت هذه هي الفرصة الوحيدة أمامي. وحينما ذهبت إلى المنزل، كان ابني ياسر يمتلك قنفذًا اسمه شوكت كان جالسًا تحت المائدة على صورة الرخصة! فأخذتها وأعطيتها للضابط، فوجد أن صلاحيتها انتهت منذ أسبوع فقط، فأبلغ قسم الشرطة باللاسلكي أنه اطلع على صورة الرخصة، وأن كل شيء على ما يرام. وأوصاني بتغيير الرخصة، فسارعت بذلك، فلم أكن أريد المخاطرة مرة أخرى.

ومن المواجهات الأخرى الطريفة التي لم تنته نهاية مأساوية أو ملهاوية، هي قصتي مع تجارة الذهب. فحين كنت في السعودية، ادخرت مبلغًا صغيرًا أودعته في البنك، وبدأ سعر الدولار ينخفض، وفي خلال عامين أو ثلاثة فَقَدتُ رُبع المبلغ (بخلاف التضخم). وشكوت لأحد أصدقائي من العاملين في البنك، فنصحني بأن أحوِّل نقودي إلى ذهب أو إلى معدن ثمين آخر (فضة - بلاتين) ثم أبيع الذهب حينما يرتفع سعره. ولاحظت أن وجوه أصدقائي كانت تتحوَّل إلى شيء أقرب إلى المعدن حينما يتحدثون عن الاتجار فيه. وبدأت أهتم بالموضوع من ناحية شخصية واجتماعية. وفتحت حسابين: حساب نقدي وحساب معدني، وعلى المرء أن يُحرِّك أمواله من الحساب النقدي إلى الحساب المعدني والعكس، حسب قراءته لأسعار المعادن، وبذلك يتحقق بعض الأرباح. وقد كان، حوَّلت أموالي إلى ذهب. وبدأت أدرس المسألة بطريقة «علمية». فأخذت أقرأ عن مناجم الذهب في جنوب إفريقيا، وقرار الاتحاد السوفيتي بخصوص مخزون الذهب عندها (وهو كبير للغاية) وأسعار الذهب. فعرفت، على سبيل المثال، أن أسعار الذهب سترتفع إن قام العمال في مناجم جنوب إفريقيا بإضراب، وأنها ستنخفض إن باع الاتحاد السوفيتي بعض ما عنده من ذهب. وبدأت أتصرف في ضوء معرفتي «العلمية» هذه. ولكن ما حدث كان هو العكس تمامًا، إذ أضرب العمال في مناجم الذهب، فانخفض سعره على عكس ما هو متوقع. فعرفت أن ثمن الذهب مسألة تعسفية يقررها كبار التجار وبعض الدول حسب احتياجاتهم، وليس حسب آليات السوق، كما كنت أتصور. وهنا طوَّرت نظرية اللص الكبير واللص الصغير. وأن اللص الكبير هو الذي يقرر السعر وهو الذي

www.scantopdf.eu

يحصد الأرباح الحقيقية، أما اللص الصغير (مثلي) فيمكنه أن يقامر ويربح هنا وهناك، ولكنه لن يحقق أرباحاً كبيرة. فقنعت بهذا الدور، وعمقت من الدراسة والقراءة، وكانت النتيجة هي المزيد من الخسائر. ولم ينقذني من هذه الحمى الذهبية إلا يوم الاثنين الأسود، حين انهارت أسعار الأسهم والسندات في الولايات المتحدة. إذ ارتفع سعر الذهب، فاتصل بي أحد أصدقائي في البنك ونصحني أن أبيع ما عندي من الذهب، وأنسحب بالحد الأدنى من الجروح. ففعلت وانتهت مغامرتي في عالم تجارة الذهب.

الوعي بالموت والمرض

كان للموت له مهابته ووقاره في دمنهور التي نشأت فيها. فالموت، في المجتمعات التقليدية، شأنه شأن الحياة، أمر مهم وخطير لا يتحمل المساومة أو الهزل. وكان الناس يقبلونه كأمر طبيعي من أمور الحياة. حينما كانت جنازة تمر فإن الجميع كان يتوقف عن البيع والشراء ويتسابق الناس لحمل النعش والقيام بواجب العزاء، وإن مررنا على القبور كان علينا أن نقول: «السلام عليكم دارَ قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن إن شاء الله بكم لاحقون». وكانت زيارة المقابر جزءاً من حياة الناس اليومية، يزورون في المناسبات والأعياد من مات من أهلهم وأقاربهم، تماماً مثلما نزور نحن الأحياء. وكانت الطريقة الحُصَافية، ومقرها الأساسي دمنهور، تهتم بالدفن والمقابر. كان الناس يُعدُّون أنفسهم للموت، تماماً مثل إعداد أنفسهم للحياة، فالموت لم يكن نهاية وإنما كاَن بداية لحياة جديدة. (ويبدو أن الموت في مجتمعنا قد تم استيعابه أخيراً في نفس النمط الصراعي الذي تم استيعاب الأفراح فيه. ففي صفحة الوفيات توجد تعازي الأثرياء في مربعات كبيرة، أما تعازي الناس العاديين فتوجد في الأعمدة التقليدية، كما قيل لي إن الفيديو قد دخل الجنازات أيضاً، إذ يتم تصويرها بعناية فائقة!).

كانت جدتي نازلي - رحمها الله - تُعدُّ نفسها، في السنوات الأخيرة من حياتها، لمنزل العودة، فبدأت في توزيع ما تبقى لهاَ من أشياء الدنيا. كنت أزورها مرة كل أسبوع بناءً على أوامر والدتي (كان واجباً عليّ تأديته، فلم يكن هناك من هم في مثل سني لألعب معهم). أعطتني مرة عصا جدي الأبنوسية الجميلة ومصحفاً صغيراً، إذ يبدو أنها كانت قد قررت التخلص من متاع الدنيا. ومرة لمحت في دولابها الخشبي المتهالك قطعتين من

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

القماش، واحدة بيضاء والأخرى خضراء. واسترعت القطعة الخضراء انتباهي، فسألتها عنها فلم تجب. وحينما عُدت إلى المنزل سألت والدتي عن كنه هذا الشيء الجميل الأخضر قالت (وكانت أمي طيبة صارمة مثل أمها): «هذا هو كفنها، إذ لا يبقى للإنسان عند موته إلا ثوبان: الثوب الذي دثره الله به (أي جلده)، والثوب الآخر هو كفنه». (فاجأني صديقي الأستاذ ديڤيد كارول David Carrol، وهو أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة لانكستر، والذي تجاوز الخامسة والستين بسؤالي: «هل بدأت في توزيع أشيائك؛ أم أنك تظن أن الوقت لم يحن بعد؟» ثم أخبرني أنه قد بدأ في الإعداد لرحلة العودة).

كانت قصص أمي عن آل المسيري - كما أسلفت - لا تنتهي. قصص تنم على الإعجاب والرهبة. مع هذا، ظل انتماؤها لآل حلبي انتماءً أحاديًا لا يتزعزع. ولذا كانت آخر رغباتها ألا تُدفن إلا في مدافن أهلها. فطقوس الموت بالنسبة للإنسان في المجتمعات التقليدية أمر لا يمكن التهاون فيه أو المساومة بشأنه. ظلت هذه الأمور عالقة في ذهني حين درست مسرحية أنتيجون لسوفوكليس، فانتماء هذه البطلة المأساوية كان لأسرتها، ولأسرتها وحسب، وهو انتماء مطلق يجبُّ حتى الانتماء للمدينة/ الدولة اليونانية. ولذا أصرت أنتيجون على دفن أخويها، اللذين خانا المدينة، برغم تحذير الحاكم كريون لها. وفي نهاية المسرحية، تواجه أنتيجون عقوبة الموت بكل شجاعة، فقد أدَّت واجبها تجاه أسرتها!

ويبدو أنني لم أكن مستوعبًا تمامًا للمرض أو للموت على الرغم من إحساسي الشديد بالزمن، فقد ظلا بعيدين عني طيلة حياتي. ولم أحضر سوى جنازة أو اثنتين طيلة حياتي، كما لم أذهب لتعزية أحد تقريبًا ونادرًا ما ذهبت لأعود أحد أصدقائي في مرضه، فكنت أكتفي بالمكالمات التليفونية أو بإرسال البرقيات. (كنت أقول ساخرًا لزوجتي: إنني حينما يتوفاني الله لن يحضر أحد جنازتي، وإن كانت ستتلقى سيلاً عرمرمًا من البرقيات).

ولابد أن انشغالي الشديد **بالموسوعة** قد شجع هذا الاتجاه فيّ، وجعلني قادرًا على تسويغه لنفسي. فكنت أخبر نفسي بأن أصدقائي سيفهمون ماذا أفعل. ولكن يبدو، والحق يُقال، أن المسألة كانت أعمق من انشغالي **بالموسوعة**، إذ كان هناك داخلي اتجاه نفسي نحو التأمل والاحتفاظ بمسافة بيني وبين الأحداث (ذلك الاتجاه الذي سأتناوله فيما

www.scantopdf.eu

بعد)، وهذا الاتجاه النفسي هو ما جعلني أسلك هذا السلوك. حينما توفي والدي، كنت في الولايات المتحدة، ولم يمكنني أن أذرف عليه الدمع. فسألت أستاذي عن سر هذا، فأخبرني بأن المسافة الجغرافية بين مصر والولايات المتحدة ضخمة وأن لهذا دخلاً كبيراً. فذهبت إلى نيويورك وحضرت مسرحية برخت **الاستثناء والقاعدة** كطقس جنائزي لوالدي، ولكني لم أبكه إلا بعد زيارتي لقبره في دمنهور. أما والدتي، فقد ماتت وهي في الخامسة والسبعين، وكانت علاقتي بها قوية (وهذا ما اكتشفته بعد موتها؛ ففي حياتها كنت أظن أن رقعة الاختلاف بيني وبينها كبيرة، ولكني أدرك الآن مدى تأثري بها). وذهبنا لتشييع جنازتها في دمنهور، وظللت صامتًا (مما أثار دهشة من حولي)، ولكني انفجرت باكيًا عند قبرها ثم لزمني الصمت وغصت في التأمل. (يبدو أن مقدرتي على التجريد هذه كانت وراء الملاحظة الغبية التي تقدمت بها لصديق لي في مثل سني ذهبت أعزيه في وفاة والدته، إذ أخبرته بأنه من الناحية الإحصائية يمكن إثبات أن أمهاتنا قد بلغن السن التي يتوقع فيها الإنسان موتهن. فنظر إليَّ بدهشة، فاعتذرت وقلت: «البقية في حياتك»).

كنت مرة في بوسطن ورأيت لوحة جميلة رسمها فنان صيني لشجرتين من نبات البامبو (البوص) تعلو كلاً منهما زهرة ملونة جميلة. وقال الفنان في شرحه للوحة: إن هذا النوع من البامبو يظل ينمو لمدة تسعة وثلاثين عامًا ثم يزهر زهرته في العام الأربعين ويموت بعدها. فسحرت بهذه الفكرة، وغرقت في التأمل فيها، وقررت أن أسافر إلى الصين لمشاهدة حقول البامبو هذه حينما تزهر. وحينما كنت أدرِّس عام ١٩٨٧ في السعودية، قرأت مقالاً في مجلة **تايم** عن أن نبات البامبو قد أزهر في ذلك العام، وكنت أقترب من الخمسين. وشعَرت بأنه لن يقدَّر لي أن أراه. فكتبت «قصيدة» نثرية عن هذا الموضوع قلت فيها: «وكنت أجلس في شرفتي/ أنظر إلى النجوم والرمال، / أعُدُّ الأيام والدراهم/ وأتحسس شعرك الخيالي. / وكنت أجلس/ أتأمل في اللحظة العابرة، / وفي السكون الساكن، / في النار والنور، / في لحظة النمو والفناء، / أعُدُّ الأيام والدراهم. / وها أنت ذي يا زهرتي، / تورقين وتنثرين ألوانك، / وتذوبين في الفضاء الأبيض الرهيب، / وأنا / يا زهرتي بعدك/ أحُث الخُطى».

كانت لحظة شعَرت فيها بالموت يحيط بي، إذ كانت الزهرة تذكرة لي بالزمن والموت، ولكنه كان شعوراً جماليًا؛ فقد كانت هناك مسافة بيني وبينه. (اكتشفت فيما بعد أن

www.scantopdf.eu

أحزاني لم يكن لها أساس، فحقول هذا النوع من البامبو لا توجد في مكان واحد فقط، بل توجد في مناطق متفرقة، وبالتالي تُزهر في مواعيد مختلفة، وأنني إن مد الله في عمري ووهبني بضعة دراهم سأحمل عصا الترحال وأذهب لمشاهدتها).

وثمة لحظة أخرى شعَرت فيها بالموت (إحساسًا جماليًا) وذلك حين كنت أقود سيارتي بالقرب من باب الحديد وكنا نقف في الصفوف الجنائزية التي تسم حركة المرور في القاهرة. وكان يقف إلى جواري عربة يجرها حصان، كان يقف شامخًا ونبيلاً برغم أن كاهله كان مثقلاً بالسرج، وأن سوط السائق كان ينزل عليه من آونة لأخرى يذكِّره بمن السيد ومن المسود. وفجأة تخلص الحصان من السرج ومن العربة ومن السوط، وأخذ يجري بأقصى سرعة بين السيارات، وظل يجري ويجري حتى تحول في ذهني إلى شكل من أشكال الحرية المطلقة. واستمر في عدوه البطولي حتى ارتطم بسور حديدي فخر صريعًا لتوه.

كما كنت أفكر في الموت نظريًا كثيرًا، وأؤكد علاقته بالحياة والنمو والتاريخ والزمن. ففي رسالتي للدكتوراه، أفردت فصلاً كاملاً عن الموت وموقف الشاعرين وردزورث وويتمان، وكيف أن الأول يدرك أن نمو الإنسان وتطوره ثم موته هو جوهر إنسانيته، وأن النضج الإنساني يعني قبول هذه الحدود. أما ويتمان شاعر العلم وأمريكا والجسد، فلم يكن يرى هذه الحدود، وكان يؤمن بدلاً من ذلك بشكل من أشكال تناسخ الأرواح (لا يختلف كثيرًا عن إيمان نيتشه بالعود الأبدي) الذي يلغي الموت والحدود. وقد ربطت بين كل هذا وموقف الشاعرين من المعايير الجمالية. كما كنت أتأمل في موقف الأمريكيين من الموت، ورفضهم الشديد له وخوفهم العميق منه، وكنت أجد في هذا علامة على عدم النضج، بل ورفضًا عَميقًا للحياة الإنسانية.

كانت هذه هي علاقتي بالموت وبالمرض، إذ تحولا إلى موضوع فلسفي مجرد، أضعهما داخل إطار، وأخلق مسافة بيني وبينهما، وأتأمل فيهما وأغرق في التأمل، دون إحساس شخصي وجودي مباشر. ثم حدث في حياتي ما زلزلني. بدأت كتابة الموسوعة وأنا في الثلاثينيات من عمري، وكنت أعمل فيها ليل نهار. أبدأ أحيانًا في السادسة صباحًا ولا أنتهي إلا في الثانية عشرة مساءً. وعلى الرغم من تقدمي في السن، فإن حصتي من النشاط والصحة كانت آخذة في الازدياد بحيث كنت أكثر نشاطًا في الثامنة

www.scantopdf.eu

والخمسين مني في الخامسة والثلاثين. كما أن الله عافاني من أي مرض طوال هذه المدة (باستثناء نوبات المرض الخفيفة المعتادة التي تدوم عدة أيام ولا تعطل عن العمل، وعملية جراحية صغيرة دامت عدة أيام). ولذا حينما كان أحد يحدثني عن التقدم في السن كنت لا أفهم ماذا يقول.

ولكن يوم أن انتهيت من **الموسوعة**، عرفت نبأ حزينًا للغاية (موت زوج ابنتي). وقد لاحظت في ذلك اليوم أنني بدأت أفقد المقدرة على النطق أحيانًا. وكنت أظن أنه عيب في فكي. وظللت متماسكًا مدة شهرين تقريبًا، ثم بدأت أشعر بدوار كلما فكرت أو مارست أي أحاسيس، وقد سقطت مرتين أو ثلاثًا على الأرض. ويبدو أن مرضي كان في معظمه نفسيّا، نتيجةً للإرهاق الذي أصابني من جراء العمل المتواصل في **الموسوعة** ومن جراء الخبر الذي وصل إليَّ وأنا مُنهك القوى تمامًا بعد الانتهاء منها. فكان جهازي العصبي يتصرف بإرادته مستقلاّ عني، إذ قرر أن يستجيب وبحدة لأي شيء، ولكل شيء حسبما يعنّ له، دون تدخل واعٍ مني. لقد وضعت جهازي العصبي داخل ثلاجة مدة ربع قرن، كنت أتباهى في أثنائها بأنني أنظر إلى وقائع الحاضر نظرة مؤرخ. (وأنني يمكنني أن أراقب العمال يغيرون رخام منزلي وأكتب في الوقت ذاته عن الفيلسوف الألماني عمانويل كانت Emmanuel Kant، وقد حدث هذا بالفعل). كما أنني كنت عبر كتابة **الموسوعة** أعامل نفسي، خاصة في مسألة الوقت، بيد من حديد. كنت حينما أجلس في الأوبرا للاستماع للموسيقى أو مشاهدة أي عرض، لا أكف عن التفكير في الموسوعة، ولا أكف عن الكتابة في أي ورقة تقابلني. وحينما كان أحد أصدقائي يزورني، أو كنت أروِّح عن نفسي، كنت أتصنع الابتسام والمشاركة في الحديث، وأنا هناك في عالم **الموسوعة**، أشعر بالذنب الشديد لضياع وقتي. وحينما كان حفيدي نديم يأتي من الولايات المتحدة، حيث كان أبواه يدرسان، كنت أخفي أوراقي تحت الأريكة وأبتسم في وجهه، وأتظاهر بأنني ألعب معه إلى أن تنادي عليه جدته، فأخرج الأوراق بسرعة وأستأنف الكتابة. بل كنت قبل أن أخلد للنوم أضع إشكالية ما في عقلي، ثم أنام على أن يستمر عقلي في التفكير، حتى إذا استيقظت في الصباح ألفيت بعض ملامح الحل قد تبلورت. بل إنني كنت حينما أغمض عيني أرى بقعة واسعة من النور.

رفض جهازي العصبي كل هذا، وتمرد عليه وعليّ. فكنت حين أود عبور شارع ما على سبيل المثال، يخاف جهازي العصبي أحيانًا من تلقاء نفسه، برغم معرفتي الواعية بأن

www.scantopdf.eu

العبور لن يسبب لي شيئًا. فكنت أضحك من توقفي، لكن قدميّ كانتا لا تتحركان. ومرة قبّلني طفل صغير، فتأثر جهازي العصبي كثيراً وأُصبت بدوار شديد كدت أسقط على أثره. ومرة أخرى رأيت خادمة صغيرة تحمل أثقالاً، فحزنت من أجلها، وأصبت بما يشبه الشلل، واستندت إلى السيارات الواقفة في الشارع إلى أن بلغت المنزل، وهكذا. وقد ذهبت إلى عشرات الأطباء، وقمت بكثير من الفحوصات، فلم تكشف الفحوصات عن شيء محدد، ولم يجد الأطباء شيئًا (كان الدكتور مجد زكريا يعالجني، وكما هو معتاد في مصر بدأ الناس يقولون لي لابد من السفر للخارج. وقد كان، فسافرت إلى سويسرا، حيث عُرضت على ثلاثة متخصصين، ذهبوا جميعهم إلى أن ما قاله د. مجد هو أقصى ما يمكن أن يوصوا به!). وكنت على وشك أن تُجرى لي بعض الفحوصات (رنين مغناطيسي) على مخي والفقرات الرقبية، فأخبرتهم بأن يفحصوا بقية العمود الفقري، فاكتشفوا أن الفقرتين الرابعة والخامسة الصدريتين في عمودي الفقري قد انهارتا منذ مدة طويلة (ربما في أثناء كتابتي الموسوعة) وأنهما بدأتا تتشكلان مرة أخرى. وقد أخبرني أحد الأطباء بأنهما تساقطتا بطريقة آمنة لأنهما لو كانتا تساقطتا بطريقة أخرى لأصبت بالشلل منذ عدة أعوام. واقترح أحد الأطباء أنهما تساقطتا على أنفسهما حينما سقطت من على ظهر حصان، فأخبرته أنني لم أمتط صهوة جواد قط كي أسقط من فوقه.

وقد حضر لزيارتي صديقي الدكتور عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم، المهندس المعماري، فأخبرته بأنني لا يمكنني أن أتحدث واقفًا، فضحك وقال: إذن فلنتحدث وأنت جالس. ونصحني بالرضا بحُسبانه مدخلاً للشفاء. وبالفعل، قبلت حالتي وبدأت رحلة الشفاء والعودة منذ تلك اللحظة، فخلدت إلى الراحة التامة لأول مرة في حياتي تقريبًا، وقضيت إجازة شهرين أمام البحر، امتنعت خلالها قدر طاقتي عن التفكير حتى استرددت جزءاً كبيراً من عافيتي (كنت أعمل مدة أربع ساعات في الصباح وحسب). وأشير لهذه الفترة من حياتي بالزلزال أو الكابوس لأنها جاءت مفاجئة وكانت بالفعل كالكابوس، وذقت طعم المرض والموت لا كمقولات مجردة وإنما كتجربة عشتها بنفسي، واستوعبتها بشكل وجودي.

ويبدو أن الله سبحانه وتعالى بعد أن ترسّخ فيّ الإحساس بالموت، أراد أن يرسخ فيّ أيضًا الإحساس بالمرض. فهذه المرة كان مرضًا ليس له أي أبعاد نفسية. فبعد أن شُفيت تمامًا من الدوار الذي كان يصيبني، شعرت بألم خفيف في ظهري وأنا في رحلة إلى

www.scantopdf.eu

بيروت ودمشق، وحينما عدت إلى القاهرة ترددت على مستشفى فلسطين لأمور طبية، بما في ذلك العلاج الطبيعي لظهري. وتدهورت الأمور فجأة (خلال يومين) أصبحت بعدها عاجزاً تمامًا عن الحركة، وكنت أُحمل من مكان لآخر. وقد أخبرني أحد الأطباء بأن داخل كل واحد منا قنبلة زمنية تنفجر حين يأتي أوانها، ويبدو أن قنبلتي الزمنية المرضية انفجرت في ذلك اليوم. وقد تبين فيما بعد وجود ورم نتيجة مرض يسمَّى ميلوما Solitary Mye-loma (ميلوما أحادية). وقد خدعني هذا الاسم بعض الوقت بسبب رقته المفرطة. وقد أخفى الطبيب حقيقة المرض عني، لأنه كما علمت، فيما بعد، مرض خطير، فهو شكل من أشكال السرطان الذي يصيب الخلايا الجذعية فى النخاع العظمي (وليس الشوكي) وهو سرطان يأكل العظام والأنسجة المحيطة، وله آثار جانبية مثل أي ورم آخر كالضغط على النخاع الشوكي. وهو الذي قام بتهشيم الفقرتين الصدريتين اللتين أشرت إليهما من قبل، وبقي هناك سنوات طويلة ولم يهشم غيرهما (كرم الله ولطفه). ثم مع نمو الأغشية وصل إلى العصب وبدأ يضغط عليه إلى أن توقف نصفي السفلي تمامًا. (يبدو أن أمراضي دائمًا ذات طابع راديكالي: حينما كنت في الولايات المتحدة استيقظت في الصباح لأمارس نشاطاتي المعتادة، وبعد ساعتين كنت في طريقي لغرفة العمليات لإجراء عملية زائدة، وكان الأمر عاجلاً حتى إنهم اضطروا لقص ملابسي بالمقص). لكل هذا تقرر إجراء عملية جراحية في الفقرة الخامسة لاستئصال الورم (تسمَّى لامينكتومي Lamenc-tomy). وقد أجرى العملية د. علاء فخر، وهو طبيب متواضع واثق بنفسه دون خيلاء العلم: يتعامل مع المعلوم، ولكنه يدرك أن هناك مجهولاً. (من الطريف أنني في عمليات سابقة حينما كنت أقع تحت تأثير المخدر، كنت أتحدث بالفصحى، وحينما يزول أثره أتحدث بالعامية، وهذا إلى حدٍّ كبير عكس المألوف، فمن المفروض أن الفصحى جزء من وعينا وأن العامية هي اللغة الأكثر تلقائية وكمونًا في سليقتنا).

ومن الأشياء الطريفة الأخرى أنه بعد إجراء العملية كنت أحلم كل ليلة نفس الحلم، وكان حلماً غريباً للغاية، لأنه لم يكن يحدث فيه أي شئ سوى القيام بأعمال يومية روتينية. أسير وأفتح الباب وأعود وأفتح الباب وهكذا. ويستمر الحلم ساعات وأستيقظ مرهقاً. ولم يكن هناك أي معنى للحلم اللهم إلا الرغبة في العودة للحياة العادية. ولكن لا شك أن المحللين النفسيين قد يجدوا معان أخرى، "أكثر عمقاً" وإظلاماً من المعنى الذي اقترحه. وأستمر الحلم عدة شهور إلى أن شفاني الله منه.

www.scantopdf.eu

ولم تكن هذه هي نهاية المرض . فبعد تشخيص المرض بوصفه ميلوما أحادية ، أجرت لى الدكتورة ميرفت النجار جلسات علاج إشعاعى (radio therapy) ، وبدأ أحد أهم أطباء الأورام السرطانية فى مصر فى علاجى ، فقرر إعطائى علاجا كيميائيا بالفم . وبعد عدة شهور وجدته يخبرنى دون أن يرفع عينيه من على الورقة التى كان يكتب فيها أننى مصاب بـ Multiple myeloma (ميلوما متعددة) الأمر الذى يتطلب علاجا كيمائيا بالحقن (أى علاجا أقوى مما كان متبعا) ، وأنه علىَّ أن أذهب إلى مستشفى كذا إما فى يوم الأربعاء المقبل أو الذى يليه ، حيث سأمكث لمدة أربعة أيام . ثم قال بطريقة عابرة للغاية إن ما تبقى لى من الحياة لا يزيد عن أربعة أعوام . فسألته على أى أساس قرر أن الميلوما التى أصبت بها ليست من النوع الأحادى ، وإنما من النوع المتعدد ؛ فقال بناء على نتيجة آخر فحص للدم الذى بين أن نسبة الـ total protein قد زادت من ٥ , ١ إلى ٥ , ٣ . لم أقتنع بما قاله الطبيب ، وكما أخبرت أصدقائى كذبت نبأ وفاتى وأعلنت أنه مبالغ فيه بعض الشىء (مقتبسا إحدى نكت مارك توين الشهيرة) . واتصلت بالدكتور علاء فخر الذى نصحنى بإجراء فحص دم فى معمل آخر ، وحين فعلت ظهر أن الـ total protein قد زاد بنسبة أقل فهو ٥ , ٢ فقط . اتصلت بالدكتور المهم وأخبرته بنتيجة الفحص الجديد ، ففوجئت به يصيح فى وجهى ويقول : «من الذى أخبرك أن تقوم بفحص ثان؟!» ، فلزمت الصمت وانتهت المكالمة ، وقررت بطبيعة الحال ألا أتعامل معه بعد ذلك .

وفى هذه الآونة ظهرت دكتورة تقوى بدر فى حياتى ، وبدأت دورات العلاج الطبيعى التى كان لها فعل السحر ، وفى يديها البركة (بشهادة كل أفراد عائلتى الذين استفادوا من علاجها) . لكن الأهم من هذا أنها بدأت تثقف نفسها فى مرض الميلوما ، وبدأت تمدنى بالمعلومات ، وأخبرتنى أن على أن أفعل كذا وكذا . وفوجئت بأنني حين ذهبت إلى الولايات المتحدة وجدت أن ما نصحتنى به هذه الدكتورة الشابة غير المتخصصة في الميلوما هو ذاته الذى نصحنى به الأطباء هناك . وكان من ضمن ما أخبرتنى به أن أنجع وسائل مقاومة هذا المرض هو عملية زرع النخاع . وإبان هذا الوقت بدأت أنا نفسى أقرأ عن الميلوما وعن السرطان بشكل عام ، فوجدت أن المنهج الذى يتبنونه الآن فى العالم الغربى هو التعايش مع السرطان وليس القضاء عليه . وحينما تغير المنهج ، زاد عدد الأدوية الجديدة بشكل ملحوظ . كما فهمت مما قرأت أنه من المستحسن تأجيل أخذ الأدوية القوية أو إجراء عملية زرع النخاع والتى تسمى بالإنجليزية autologuous bone marrow

www.scantopdf.eu

وهى فى الواقع ليست عملية، بل تسمى «إجراء» procedure transplant، إذ يقومون بأخذ الخلايا الأم أو الخلايا الجذعية stem cells من المريض نفسه ثم ينظفونها من الخلايا السرطانية، وبعد ذلك يقومون بإعطاء المريض علاجًا كيميائيا قويا يقتل كل خلاياه (مما يضعف جهازه المناعى تمامًا)، ولذا يعزل المريض في أثناء هذا الإجراء فى مكان معقم من الميكروبات ـ ولكن يستثنى من هذا الإجراء زوجة المريض ـ ولا يدخل له الأطباء أو الزوار لا وقد وضعوا كمامات حول وجوههم ويرتدون القفازات الطبية. وبعد العلاج الكيميائى القوى يقومون بحقن المريض بخلاياه الجذعية ويبدءون فى إجراءات التحليل ليرصدوا ما إذا كانت الخلايا قد زرعت أم لا، وبعد ذلك يعود المريض للحياة الطبيعية.

والعملية بسيطة للغاية، فحين حان يوم العملية جاءت كبيرة الممرضات ومعها الخلايا الجذعية ووضعت الخرطوم فى الأنبوب الذى وضع فى عروقى. وبعد مرور عشر دقائق، رأيتها واقفة، فقلت لها لم لا تجلسين، فأخبرتنى أن الإجراء انتهى. ولكن برغم بساطة العملية فهى مكلفة للغاية، بسبب التمريض والعزل. وقد تقدمت بطلب للحكومة المصرية كى أعالج على نفقتها، ويبدو أن طلبى قد رفض أو أهمل أو ضاع (بعد إجراء العملية، أى بعد عام من تقديمى الطلب، أخبر أحد كبار المسئولين أحد أصدقائى أن طلبى لا يزال قيد البحث!). ولم ينقذنى من هذا الموقف سوى أحد أصدقائى السعوديين الأستاذ حمد عبدالعزيز العيسى الذى كتب مقالا فى إحدى الصحف السعودية عن وضعى الصحى (والمالى)، ففوجئت بمكتب سمو الأمير عبد العزيز بن فهد يتصل بى ويعرض على أنه سيتكفل بنفقات علاجى فى مركز أندرسون MD Anderson، وهو أهم مراكز السرطان فى العالم (ويفوق فى سمعته الآن مركز جوستاف روسى فى باريس). وقد كان كرم سمو الأمير بالغًا لدرجة لا يمكن تصورها، مما جعل فترة العلاج تجربة يمكن أن أتحدث عنها بشىء من السعادة، خاصة وأن المكتب الصحى فى الولايات المتحدة التابع لمكتب سمو الأمير، والذى يديره الدكتور السكيت، لم يكن يتأخر لحظة واحدة حين أطلب شيئًا. وقد عينوا لى مساعداً هو الصديق عبد الكريم بوتين ليساعدنا فى التنقل من مكان لآخر، ولكننى اكتشفت أن عنده كفاءات كثيرة، فتحول إلى مساعد شامل يأخذنا من مكان لآخر، ويعلمنى الكومبيوتر، ويبحث لى عن المقالات على النت ويتناقش معى فى بعض ظواهر المجتمع الأمريكى.

ولكن قبل أن أبدأ العلاج فى مركز أندرسون، ذهبت لإجراء بعض الفحوص فى

www.scantopdf.eu

جامعة راش Rush وقابلت هناك طبيبة شابة، كانت متحمسة للغاية، وتعرف الكثير عن الميلوما. وبعد أن أجريت بعض الفحوص أخبرتنى بضرورة إجراء عملية زرع النخاع فى أسرع وقت، ولكننى عرفت أنه من الأفضل تأجيل استخدام المدفعية العلاجية الثقيلة (سواء كان نوعاً جديداً من الأدوية أم إجراء العملية) وذلك لكسب الوقت، فقد استشرت صديقى الدكتور إياد الكاتب، وهو طبيب أمريكى من أصل عراقى متخصص فى سرطان الدم (ومدير لأحد مراكز السرطان فى الولايات المتحدة)، كما استشرت عدة أطباء فى فرنسا وألمانيا ومصر فنصحوا كلهم بالتأجيل، وقد فعلت. وأوصوا بأن أقوم برصد المرض، لأنه يمكن أن يظل خامداً بعض الوقت. ولكن إذا زادت الخلايا السرطانية عن حد معيَّن، لابد من إجراء عملية تنظيف للنخاع. وحتى أساعد أطبائي بدأت في دراسة المرض وأعراضه، وبذلك أصبحت المراقب الذي يشترك في عملية المراقبة !فكانت حالتي كما يقولون تقف بين المرض والصحة، بين معدلات الأصحاء والمرضى، وأقول لنفسي ساخراً، هذه الحالة جديرة بشخص مثلي يعشق التفرد ويحبذ دائماً استخدام النموذج المفتوح!

ورغم فجائية اكتشاف المرض، فقد تقبلت هذا الخبر بكثير من الهدوء والرضا، بل إننا حين كنا في شيكاغو أنا وزوجتي للاستشارة، كنا نحدد مواعيد الأطباء بما يتفق مع جدولنا «السياحي». فقمنا بزيارة المتاحف والحدائق والمسارح، وقضينا واحداً من أجمل شهور حياتنا الزوجية. (وهو أمر كان بمثابة مفاجأة كاملة للطبيب، فهم في الولايات المتحدة حينما يخبرون أحدا أن عنده سرطانا عادة ما يأتون بالمعالج النفسي حتى يمكنه تقبل وضعه الجديد).

وبعد عام بدأت أشعر بآلام حادة فى ظهرى، فذهبت إلى الولايات المتحدة، وهذه المرة نصحنى الجميع بضرورة إجراء العملية. وذهبنا إلى نيويورك، وكنا على وشك مغادرتها حين وقعت أحداث ١١ سبتمبر في أثناء وجودنا فيها. كنا نقطن فى فندق فى شارع ٧١ فى مانهاتن على بعد عدة كيلومترات من مركز التجارة العالمى، وكنا نشم رائحة الدخان والتراب نتيجة انهيار البرجين. وشاهدنا بداية الحملة الإعلامية الشرسة ضد العرب والمسلمين إذ وُجه الاتهام على الفور من قبل الإعلام الأمريكى (والمؤسسة الحاكمة) للمسلمين، وذلك قبل إجراء أى تحقيق، وساهم الإسرائيليون والصهاينة فى ذلك. وتم توظيف الحادث من قبل المؤسسة الحاكمة لخدمة مطامحها الإمبريالية. المهم

www.scantopdf.eu

حينما عدت إلى القاهرة سألنى أحد الصحفيين: من الذى قام بعملية ١١ سبتمبر؟ حاولت أن أبين له أنه لا يهم من قام بها وإنما المهم هو كيفية توظيفها. وحينما وجدت أنه غير مستوعب لفكرتى، بدأت فى توضيح الأمر له بشكل كوميدى؛ فقلت له: «زوجتى هى المسئولة، وإليك الدليل: أنا كنت فى الفندق نائمًا على ظهرى متألمًا، ثم ذهبت زوجتى لشراء كابوتشينو لى وغابت لمدة ساعة. فى هذه الساعة تم الهجوم الأول على البرج الأول، ثم بعد ذلك تم الهجوم على البرج الثانى. وحين عادت زوجتى تحمل الكابوتشينو كانت تبتسم وكأنها لم تفعل شيئًا. كل هذا يدل على أنها هى التى قامت بتدبير وإدارة هذه العملية. والشيء الوحيد الذى لا يزال يحتاج إلى تفسير هو: هل اشترك بائع الكابوتشينو معها فى المؤامرة، أم أنها قامت بها بمفردها؟. ثم أضفت: إن ما أتيت به من أدلة لا يختلف فى قوته أو ضعفه عن الأدلة التى تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية عن تورط هذه المنظمة أو تلك فى هذا الحدث الإرهابى. وبالتالى يجب ألا نضيع الوقت فى البحث البوليسى وأن نركز على التحليل السياسى.

عدت إلى مصر وأنا فى حالة ألم شديدة فى ظهرى، نصحنى الأطباء بإجراء علاج إشعاعى على ظهرى، ومرة أخرى قامت الدكتورة مرفت النجار بالإشراف عليه، والنتيجة كانت سحرية، خلال عدة أسابيع. فبعد أن كنت أسير متكئًا على عصا وأنام على ظهرى معظم الوقت ولا أقوم من السرير إلا بمساعدة شخصين أو ثلاثة خفت آلامى، وأصبحت تقريبًا طبيعيا، خاصة وأن الدكتورة تقوى كانت تقوم بإجراء العلاج الطبيعى بشكل منتظم يومى، كما أنها بدأت تشرف على صحتى؛ فحين أصاب بالبرد أو بأى شيء تأتى ومعها الأدوية وتتصل بى كل بضعة ساعات لترى أثر الأدوية. وقد قامت صداقة عميقة بين أعضاء أسرتي والدكتوره تقوي، حتي أصبحت بمثابة إبنة لنا. لم تكن تقوي مجرد طبيبة وإنما طائر جميل حط علي حافة نافذتيً، كما أقول في القصيدة التي كتبتها عنها في ديواني الشعري!

كان الأطباء فى الولايات المتحدة قد أوصوا بست جلسات علاج كيميائى قبل إجراء العملية. وكنت قد تعرفت فى تلك المرحلة على الدكتور على خليفة الأستاذ بجامعة عين شمس، وهو متخصص فى التشخيص المبكر للأورام السرطانية، ومصاب بالمرض نفسه الذى أصبت به، فقامت صداقة بيننا، خاصة وأنه كان -رحمه الله- على جانب كبير من الثقافة والاهتمام بالقضايا العامة، فكنا نتبادل المعلومات والزيارات، ورشح لى الدكتورة

www.scantopdf.eu

هدى جاد الله لتشرف على جلسات العلاج الكيميائى. ومن حديثى معها أحسست أنها برغم تواضعها الجم، تعرف الكثير عن مرضى وأنها متابعة لما ينشر فى الخارج. المهم بعد الجلسة الأولى لاحظت الدكتورة هدى أن استجابتى للعلاج الكيميائى كانت إيجابية للغاية، وأن جميع مؤشرات المرض اختفت، فقررت لى جلسة ثانية لتتأكد من هذه الاستجابة، فكانت الاستجابة أحسن هذه المرة، فقررت الاكتفاء بالجلستين. وقد أعجب طبيبى فى الولايات المتحدة بقرارها وجرأتها، ووافق على رأيها.

ذهبت بعد هذا إلى الولايات المتحدة لإجراء عملية زرع النخاع، وبدأ علاجى على يد دكتور أليكسنيان Alexenian، وهو من أشهر المتخصصين فى الميلوما فى العالم، وحين قابلته لأول مرة كان لطيفا للغاية، وسألنى عن الشاعر الإنجليزى المفضل لدى فأخبرته أنه وليام بتلر ييتس، فقال إن ابنته كتبت بحثا عنه. وبعد أن فحص التقارير والتحاليل المختلفة قال إنه يمكن إجراء عملية لى لأننى دون الـ ٦٥ سنة وعندى من المال ما يغطى التكاليف (أى أن المكتب الصحى التابع للأمير عبد العزيز بن فهد سيتكفل بدفع التكاليف). ويمكن القول إن هذه المقابلة نصفها تراحمى والنصف الآخر تعاقدى فما قاله عن تغطية التكاليف لم يكن له أى مبرر، فهو أمر كان معروفًا لدى ولديه. ولكن الأمور تدهورت بعد ذلك حين ذهبت لإجراء الفحص السنوى فى العام التالى، فقد وجدته تعاقديّا بشكل رهيب. كان أستاذى فى الولايات المتحدة الدكتور وايمر قد نبهنى إلى ما يسمى بالـ Jupiter complex أى مركب (أو عقدة) جوبيتر. وجوبيتر هو الاسم اليونانى للإله زيوس، كبير الآلهة. والطبيب المصاب بهذه العقدة يتصور أنه إله. كنت جالسا على الكرسى أنا وزوجتى، وحين دخل د. ألكسينيان قمت احتراما له، لعلمه وسنه، ولكن بدلا من أن يصافحنى جلس على مكتبه وسألنى لم وقفت؟ (وهو يعرف تمامًا السبب) فأجبته عن سؤاله. فلم يعلق وقال: إنه تمرين رياضى لا بأس به، ومفيد للعضلات، أى أنه حول تحيتى التراحمية إلى شيء يخصنى وحدى ويعود على بالفائدة المادية. وبعد أن نظر فى الأوراق ونتائج الاختبارات قال: إن هناك دواء جديدا، ولكنه لن يعطيه لى دون أن يذكر لى السبب. وبعد أن سألته عدة مرات قال إنه يفضل تأجيله بسبب قوته، وإنه سيكتب لى حقنة أسبوعية من peg interferon وهى مضادة لفيروس C الكبدى، ولكن ثبت أن لها فائدة فى مكافحة الميلوما. ثم أضاف أنها حقنة مكلفة للغاية، ولذلك فإنه سيسمح لى بحقنة واحدة على أن أقابل المسئول المالى ليتأكد من إمكانياتى المالية (رغم

www.scantopdf.eu

علمه بأن مكتب سمو الأمير عبد العزيز بن فهد يتكفل بنفقات علاجى). وحين أخبرته بذلك لم يرد علىَّ. ثم نظر إلى نتائج الفحص، وقال إننى من خلال عملية نقل النخاع وصلت إلى ما يسمى «الكمون الجزئى»، الأمر الذى يعطينى ٤ سنوات. فابتسمت وقلت لزوجتى ضاحكًا هذا يعنى أننى يجب أن أحاول أن أنتهى من مشروعاتى الفكرية فى ثلاث سنوات ونتنزه سويا فى السنة الرابعة والأخيرة. ففوجئت بالدكتور د. ألكسينيان يقول: «أنا لم أقل إنك ستعيش مدة أربع سنوات فقد تموت بعد ستة شهور». فسألته: «هل هذا له علاقة بالميلوما؟»، قال: «لا، لكن يمكن أن تصاب بالأنفلونزا أو أى مرض آخر». فضحكت وقلت له: «عندنا فى القاهرة يمكن أن تقوم عربة مايكروباس أو نص نقل بهذه المهمة فى أقل من ٢٤ ساعة» (أى حاولت أن أخبره بطريقة علمانية أن الأعمار بيد الله). ومن أطرف الوقائع أنه في الفحص الأولى سألني إن كان هناك قشر في وجهي، فأجبت بالنفي. ولكن بعد عدة أيام بدأ القشر يظهر في وجهي، ربما بسبب الجفاف في تكساس، فذكرت له الموضوع في المقابلة التالية ففوجئت به يقول: «so what?» «وإيه يعنى؟» كما لو كان الأمر لا يعنيه البته ولا مبرر لذكر الموضوع على الإطلاق، رغم أنه هو الذي نبهني إليه في بداية الأمر. وقد عرضت النتائج التى خلص إليها د. ألكسينيان بخصوص حالتى (خاصة وأن الدواء الذى وصفه له أعراض جانبية عديدة) على أحد أصدقائى المتخصصين. فقال إن د. ألكسينيان يبالغ فى الأمور، ثم نبهنى إلى أنهم فى بعض المراكز الطبية يفضلون سمعة المركز على صحة المريض، وأنهم يودون تغطية أنفسهم خوفا من التقاضى (وهذه ظاهرة آخذة فى التفاقم فى الولايات المتحدة، حتى إن بعض الأطباء بدأ يترك مهنة الطب تماما لأنه مع تزايد القضايا التى يرفعها المرضى ضد الأطباء، ومع تزايد التعويضات التى يحكم بها القضاء، يتزايد التأمين المطلوب من الأطباء دفعه، إلى أن وصل إلى مبالغ غير منطقية لا تتناسب البتة مع أرباح الأطباء ولهذا السبب بدأ بعض الأطباء يرفضون علاج أي شخص يعمل في مجال المحاماة أو أي أنثي متزوجة من محامي).

وذكرنى موقف د. ألكسينيان بموقف طبيب مخ وأعصاب فى عمان ذهبت إليه حينما أصبت بما يشبه الجلطة فى مخى بعد الانتهاء من **الموسوعة**. فوصفت له حالتى، فقال لابد أن تجرى بعض اختبارات التوافق العصبية، فقمت بها على أكمل وجه (فقد أجرى عشرات الأطباء هذه الاختبارات وتعلمتها جيدًا). ولكن برغم نجاحى فى الاختبارات

www.scantopdf.eu

أصر الطبيب على ضرورة تسييل الدم، وأضاف أننا لو أجرينا اختبار carotid doppler (الخاص بقياس مدى سيولة الدم فى شرايين الرقبة الخارجية) فإن النتيجة ستبين ضرورة التسييل. وكنت قد أجريت هذا الاختبار فى مصر، وكانت النتيجة سلبية، فأعطيته له فنظر إليه وقال: «ما زلت أرى أنه لابد من التسييل لأنه لو كنت قد أجريت اختبارcarot id vescularالخاص بقياس مدى سيولة الدم في شرايين الرقبة الداخلية، وهو غير موجود إلا فى الولايات المتحدة، لبين لنا بما لا يقبل الشك الحاجة إلى التسييل». ولكن لسوء حظه كان الجهاز موجودًا فى مصر، وكنت قد أجريت الاختبار وكانت نتيجته سلبية، فأعطيتها له فقرأها وأصر على التسييل. وهنا عرفت أننى أمام طبيب مصاب بعقدة جوبيتر بشكل حاد.

ورحلتى فى الاستشفاء لها جوانب إيجابية كثيرة، فالعناية الطبية فى مركز أندرسون كانت فائقة وتبعث على الإعجاب. وكان هناك طبيب على قدر كبير من الثقافة والإحساس بالنكتة، كان حين يدخل غرفتى فى المستشفى تشرق الدنيا ويزول كثير من الأعراض الجانبية لعملية زرع النخاع، وأخبرته بأثره فيَّ، فضحك وقال: «إنه يتمنى لو أن أثره في بقية المرضى يشبه أثره فيَّ».

كنت أسمي دكتور الكسينيان، د. فرانكنشتاين، بسبب موقفه التعاقدي المحايد، الذي حولني إلى موضوع ومادة إستعمالية، ولكن والحق يقال في المرة التي يليها غيّر موقفة تماماً، فكان إنسانياً تراحمياً إلى أقصى درجة. فعلي سبيل المثال نظر في نتائج التحاليل التي كان يجريها الدكتور هاني حليم في معمله في مصر ووجدها متطابقة تماماً تقريباً مع تحاليل مركز أندرسون، فقبل بها. كما أنه قبل أن يضع في تقريره إشارة إلى استخدامي بعض الإعشاب التي ساهمت في شفائي من بعض الأعراض الجانبية (كان صديقي الدكتور زغلول مدير مستشفي فلسطين، والذي يرعاني طبياً ونفسياً، قد وصفه لي). كما أنه بدل أن يقضي معي بضعة دقائق كما كان يفعل دائماً قضى معي ساعة كاملة، وذكر لي خطة العلاج وفلسفتها. فهو قد وصف دواء البيج انترفيرون peg interferon لأنه خفيف ثم سيتدرج فوصف لي هذا العام الثلايدومايد thalidomide لمدة عام أو عامين حسب النتائج، ثم أخيراً سيصف لي دواء جديد يسمى فاليكرون valecron. إلى جانب أنه طمأنني إلي أنه يجد جديد كل عام فربما يظهر في هذه الفترة دواء جديد أكثر نجاعه. ثم تحدث معى عن الشعر مرة أخرى وعن أحوال العالم، فتساقط قناع د. فرانكنشتاين وتم

www.scantopdf.eu

تقويض مركب جوبيتر وفاض نهر التراحم الإنساني ليمحو ذكرى التعاقد الموضوعي غير الإنساني.

لم أكتف بالطب التقليدى ولجأت إلى أنواع من الطب البديل من العلاج بالأعشاب والإبر الصينية، ولا أدرى هل استقرت حالتى بسبب الطب العادى أم بسبب الطب البديل أم بمزيج منهما. ومما شجعنى على الاستعانة بالطب البديل أن أستاذاً للشعر الإنجليزى (متخصص فى الشعر الرومانسى مثلى تماما) في جامعة أكسفورد يدعى Michael Gear-in Tosh أصيب بمرض الميلوما وأخبره الأطباء أن أمامه ستة شهور، وأنه لو لجأ للعلاج الكيميائى فسيموت فوراً. فكذب هو الآخر نبأ وفاته، وبدأ رحلة علاج مع أنواع مختلفة من الطب البديل خاصة ما يسمي علاج جرسون Gerson. وبعد مرور عشرة أعوام من نبوءة وفاة الأستاذ كتب كتاباً بعنوان «برهان حى: تمرد طبى» Living Evidence: A Medical Mutiny يسجل فيه تجربته مع الطب العادى والطب البديل! ومن أطرف ما جاء فى كتابه ما يسمى «التخيل الصينى»، وهو أن الإنسان يتخيل نفسه مع أحد أصدقائه وقد نزلا سويا فى شرايينه ليقابل الخلايا السرطانية ويبدأ فى ضربها حتى تقع ميتة. فكنت أقوم بهذه التمارين. وعلى أي حال كان كل الأطباء (بما فى ذلك د. ألكسينيان) بعد الانتهاء من الفحوصات يخبروننى أن ٨٠٪ من العلاج يتوقف على حالتى النفسية وعلى الإرادة. وقد أيد الأمير تشالز، ولي عهد بريطانيا، استخدام الطب البديل، فهاجت وماجت المؤسسة الطبية التقليدية ضده!

ومن أطرف الوقائع الطبية فى حياتى ما حدث لى فى الجامع الأموى فى دمشق. كنت قد قمت بأداء فريضة الحج أنا وزوجتى وقررت أن أمر على عمان لزيارة الأصدقاء، وأن نذهب إلى سوريا لنزورها لأول مرة فى حياتنا. فاعترضت زوجتى قائلة: إننا بعد الحج سنكون مرهقين وربما نصاب بالأنفلونزا ولا داعى للقيام بأى جولة سياحية، ولكننى أصررت على موقفى. وحينما وصلنا إلى عمان وجدت أن حرارتى بدأت ترتفع، وشخص الأطباء مرضى بأنه "حمى مالطية"، فنصحتنى زوجتى بضرورة الإسراع بالعودة إلى القاهرة، ولكننى أصررت على استكمال جولتى السياحية. وركبنا الأتوبيس إلى دمشق، وحين وصلت إلى هناك ارتفعت درجة حرارتى بشكل ملحوظ إلى درجة أننى اضطررت إلى وضع بعض الثلج على جبهتى. فى اليوم التالى انخفضت درجة حرارتى إلى حد ما، فقررت أن نقوم بزيارة الجامع الأموى كما كان العزم برغم كل

Produced with ScanToPDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu

تحذيرات زوجتى. وحين وصلنا إلى هناك ارتفعت درجة حرارتى مرة أخرى، وبدأت زوجتى فى تعنيفى بسبب عنادى الشديد. عند هذه اللحظة قررت أن أضع حدّاً لعملية التعنيف هذه، فالتفت إلى السماء ودعوت الله بصوت عال أن يشفينى فى أسرع وقت، حتى تكف زوجتى عن تعنيفى، فاستجاب الله دعوتى على الفور، إذ انخفضت درجة حرارتى فى اللحظة نفسها، وبدأت أتصبب عرقا بشكل ملحوظ، حتى كنت اضطر إلى الذهاب إلى السوق لأشترى فانلات لأن فانلتى كانت تبتل من غزارة العرق، وبعد ساعة كنت قد شفيت تماما. فذهبنا إلى مقهى على نهر بردى وتناولنا طعام الغداء، ثم عدنا إلى عمان، وكان الجميع مرهقا تماما، إلاى. وفى طريق العودة مررنا على مدينة جرش حيث يقام مهرجان فنى كل عام، وتذكرت أن ماجدة الرومى كانت تغنى تلك الليلة، فاقترحت عليهم أن نعرج على المسرح لنسمعها. فرفض الجميع بسبب الإرهاق الذى كان قد ألم بهم، بينما أنا المريض كنت فى غاية اللياقة البدنية، وسبحان مغير الأحوال. إن ما حدث لا يمكن فهمه ولا يمكن تكراره (وهذه هى بعض صفات المعجزة التى يطلق عليها اصطلاح «صدفة»).

وتعلمت الكثير في مرضي: تعلمت أنا الذي لم أمرض مرة واحدة تقريبًا في أثناء كتابة **الموسوعة**، بل وكنت أتحدث عن السيطرة على الجسد، والذي أعددت عشرات المشروعات البحثية فور الانتهاء منها ـ تعلمت حدود الجسد الإنساني وحدود المقدرة الإنسانية. وبدأت أتعاطف مع المعوقين أكثر من ذي قبل (وإن كنت اكتشفت كيف أن الإنسان المعوق يعوض نقط النقص فيه من خلال كفاءات أخرى يطورها). وتعلمت ما قاله لي أحد الأصدقاء إنه لا يوجد مرض وإنما يوجد مرضى، أي أنه لا توجد قوانين عامة (أو نماذج مجردة) وإنما يوجد أشخاص يصابون بمرض ما ويستجيب كل واحد منهم للمرض بطريقة مختلفة. كما غمرني أصدقائي وتلاميذي بالمحبة، فعادني عشرات منهم ووصل إليّ نهر جميل من الأزهار، كان يفيض من غرفتي على بقية المستشفى. وحينما كنت أسير في شوارع لندن، كان كل الناس يساعدوني، وحينما أركب إحدى وسائل المواصلات العامة يتركون لي مقاعدهم. (في الشدائد يظهر المعدن الإنساني الأصيل، و«يقدم الإنسان شاراته الأخوية»، كما يقول الشاعر الشيلي بابلونيرودا. وذكرني هذا بما كان يحدث للناس في الولايات المتحدة بعد العواصف الثلجية. كان الجميع يتكاتفون، وإن غرست سيارة في الثلج تقف السيارات الأخرى لمساعدتها. وإن غطى الثلج باب

www.scantopdf.eu

منزل يأتي الجيران لإزاحة الثلج، فيسقط التعاقد تماماً ويظهر جوهر الإنسان التراحمي). وكنت قد تعرفت على الأستاذ محمد همام - رحمه الله - الصحفي المتميز الذي كان قد أجرى معي عدة حوارات متميزة لمجلة **نصف الدنيا**، وكان ذكياً مثقفاً دمث الخُلُق. و توطدت أواصر الصداقة بسرعة. وحين سقطت مريضاً كان يعودني وكان دائم السؤال عني، بل وكان يزورني كلما سنحت له الفرصة (كم كان حزني عليه حين وصلني نبأ «اغتياله» على يد سائق أرعن على كوبري أكتوبر. ألا يمكن أن ننظر لحادث الاغتيال العشوائي هذا بحسانه رمزاً جيداً لما يحدث لمصر ولإمكاناتها وللأجيال الصاعدة؟). وهكذا تعلمت، أنا الذي لم أعُدْ أحداً في مرضه إلا نادراً، أهمية أن يقف المرء إلى جوار الآخرين في لحظات الشدائد.

وحيث إن التدهور في حالتي الصحية بدأ يوم أن انتهيت من **الموسوعة**، فقد انتشرت شائعة طريفة في القاهرة مفادها أن الموساد هي التي وضعت فيَّ الميكروبات التي تسببت في هذه الأمراض. وهذا تطبيق كوميدي لنظرية المؤامرة!

Produced with ScanTopDF
www.scantopdf.eu
www.scantopdf.eu